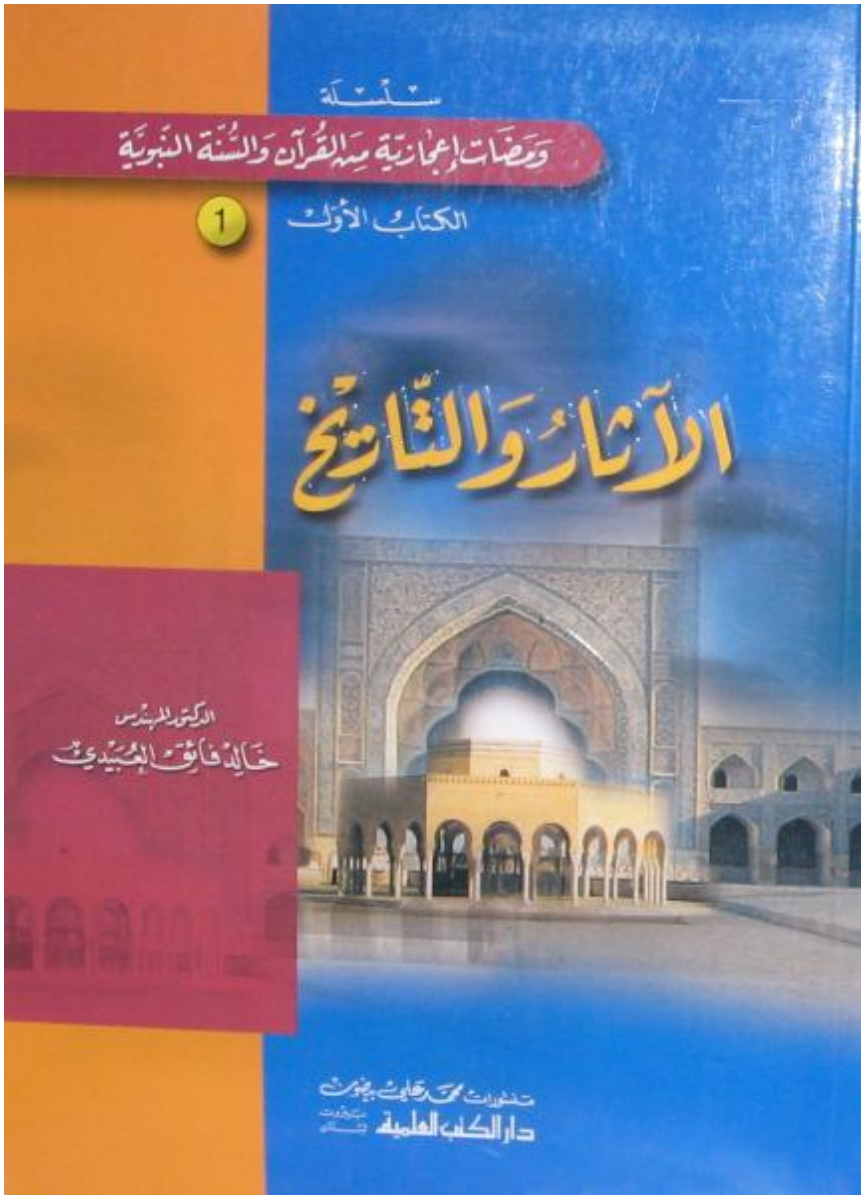

طبعة دار الكتب العلمية - بيروت

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

"ولتعلمن نبأه بعد حين"

صدق الله العظيم

سلسلة

ومضات اعجازية من القرآن والسنة النبوية

الكتاب الأول

الآثار والتأريخ

الدكتور المهندس
خالد فائق العبيدي

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الإهداء

أهدي هذا الجهد المتواضع إلى روح من أرسله الله رحمةً للعالمين، إلى خير معلم وأشرف رسول، إلى روح **سيد الأولين والآخرين رسول الله المصطفى سيدنا محمد ρ**، وإلى أرواح إخوانه من الرسل والأنبياء أجمعين ، والى أرواح آله الطيبين الطاهرين وصحابته المجاهدين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين... وإلى أرواح شهداء الأمة على مر العصور الذين رووا بدمائهم الزكية الأرض لتكون كلمة الله هي العليا... وإلى أمتي ووطني وأهلي .

إلى من هي نفحة من رحمة الله تعالى التي حملتني من وهن وأعانتني من ضعف، وإلى الوالد الذي كان لي السند في كل الشدائد، عسى الله أن يجعل هذا العمل صدقة جارية لهما وأن يغفر لي تقصيري في حقهما... وإلى كنز الحياة الدنيا الزوجة العزيزة التي كانت لي نعم العون بعد طول عناء... وإلى أولادي الأحباء عسى الله أن يجعلهم من أهل الصلاح والخير.

راجياً من الله أن يتقبله عنده وأن يجعله كله خيراً ويكون ذا فائدة جمّة للناس أجمعين..

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المحتويات	الصفحة
مقدمة السلسلة	٥
الكتاب الأول: علم الآثار والتاريخ	١٠
المقدمة	١١
الفصل الأول:سفينة نوح (عليه السلام)	١٢
الفصل الثاني: قوم لوط (عليه السلام)	٢٣
الفصل الثالث: جثة فرعون مصر	٢٧
الفصل الرابع: قصة أصحاب الكهف	٣٣
الفصل الخامس: دلائل تأريخية أخرى	٤١
الملاحق	٦٣
الملحق (١) : قصة نوح عليه السلام	٦٤
الملحق (٢): قصة لوط عليه السلام	٨٨
الملحق (٣): قصة موسى عليه السلام	١٠٤
أعمال للمؤلف	٢٦٣

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

مقدمة السلسلة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل وأشرف رسله وأنبيائه سيدنا محمد ρ, وعلى آله وصحبه أجمعين, ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين, وبعد.

لن آتي بجديد إذا ما قلت أن السبق العلمي والإعجاز العلمي والعددي في القرآن الكريم والسنة المطهرة هو أوسع من أن يكون مجرد إشارات في آيات مباركات تعطي حقائق علمية ظهرت في عصر التكنولوجيا الحاضر، وكأن الله تعالى يتحدى الخلق كما تحدى أهل اللغة في عصر الرسالة الأول أن يأتوا بسورة من مثله.

ورغم أن آيات الإعجاز تصل من حيث العدد إلى حوالي خمس القرآن (أكثر من ألف آية), إلا أن عملية تعداد آيات الإعجاز بمعناه الشمولي لهو من العسر بمكان لأنه لا تكاد آية قرآنية واحدة تخلو منه.

هناك كتب كثيرة تحدثت بوجه العموم، كما وأن بعضها تخصصي أخذ جانباً واحداً من جوانب العلم كالطب والهندسة الوراثية والأحلام والجيولوجيا والفلك والرياضيات وغيرها فضلاً عن المؤتمرات والمجلات والمطبوعات والصحف والحلقات المرئية والمسموعة والبحوث والمقالات العديدة التي أجريت وكتبت في مختلف أنحاء العالم. وكان جراء كل هذه البركات إسلام عدد كبير من علماء الغرب من كافة الاختصاصات, كان ٣٠ منهم فقط في مؤتمر الإعجاز العلمي العالمي الخامس الذي عقد في قاعة غورباتشوف بموسكو عام ١٩٩٣ م, ليشكل صفعة كبيرة توجه لأعداء الله مصداقاً لقول الله تعالى: { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ }، (التوبة:٣٣). وقوله ρ في الحديث الذي يرويه لنا سيدنا علي τ :(**ألا إنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ فَقُلْتُ مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا**

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

رَسُولَ اللَّـهِ قالَ كِتَابُ اللَّـهِ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ ونوره المبين وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الَّذِي لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ وَلا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ ولا تَتَشَعَبُ مِنهُ الآراء وَلا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ ولا يَمَلُّهُ الأتقياء وَلا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ وهُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قالُوا (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ **(مَن عُلِّم عِلمُهُ سَبَق ومَنْ قالَ بِهِ صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)**[1]... يقول الدكتور موريس بوكاي:

(لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختصر بها الإسلام دهشتي العميقة في البداية.. لم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوي الخاصة بموضوعات شديدة التنوع، ومطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة في نص كتاب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً... في البداية لم يكن لي إيمان بالإسلام، وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة، وإذا كان هناك تأثير ما قد مورس فهو بالتأكيد تأثير التعاليم التي تلقيتها في شبابي، حين لم تكن الغالبية تتحدث عن المسلمين وإنما المحمديين لتأكيد الإشارة إلى أنه دين أسسه رجل، فهو دين عديم القيمة تماماً أزاء الله. وككثيرين كان يمكن أن أظل محتفظاً بتلك الأفكار الخاطئة عن الإسلام، وهي على درجة من الانتشار بحيث إنني أدهش دائماً حين ألتقي خارج المتخصصين بمحدثين مستنيرين في هذه النقاط. أعترف بإنني

([1]) أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وأخرجه الدارمي

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

كنت جاهلاً قبل أن تعطى لي عن الإسلام صورة تختلف عن تلك التي تلقيناها في الغرب)[1].

لقد حاولت جاهداً في هذا المسلسل أن أذكر جزءاً يسيراً من صور الإعجاز العديدة مركزاً على الحالات التي ظهرت مؤخراً في العقدين المنصرمين لأن ما تم إنجازه في هذا الصدد كبير بل وكبير جداً.

ولا يعني هذا بأي حال من الأحوال أن ما سيذكر في المسلسل هو كل ما موجود من سبق قرآني لعلوم العصر الراهن، لأن القول بهذا هو عدم الإدراك لمفهوم الإعجاز القرآني الذي لا تنقضي عجائبه ولا يشبع منه العلماء. ولكن لنا أن نقول بأنه قبسات أو ومضات من نور هذا الكتاب الذي شرفت هذه الأمة به، لذلك ارتأيت تسمية هذه المسلسلة بهذا الاسم (ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية)، وهي تشمل ومضة هنا وأخرى هناك من علم القرآن الواسع في علوم عصرنا الراهن المليء بالمكتشفات والحقائق المذهلة، وكأن الله تعالى قد أذن لنا بأن نصل لهذه المكتشفات ليقول للبشرية إن ما وصلتم إليه بإذني قد أنزلته عليكم بكتابي فآمنوا به مصداقاً لقوله تعالى {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}، (فصلت:٥٣).

لم أقصد من كتابة هذا المسلسل التدخل في اختصاصات ليست لي، وإنما أردت منه توجيه عناية القارئ الكريم إلى تطابق كون الله المنظور وكونه المقروء (القرآن الكريم) من جهة، وكذلك ليتعرف القارئ الكريم على عظمة علوم القرآن وسبقه المذهل وتطرقه للعلوم المختلفة على شكل أمثال وإشارات وقصص. وكان كل ذلك اعتماداً على بحوث ودراسات قام بها باحثين

---

(١)دراسة الكتب المقدسة، د.موريس بوكاي، ص١٤. وانظر موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي الشريف، عبد الرحيم ماردينى،- ص ٣٣-٣٤.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

واختصاصيين عديدين كل في مجال عمله وتخصصه جزاهم الله تعالى كل الخير عن دينه وكتابه وسنة حبيبه ρ .

تم اختيار حقول علمية مختلفة كالآثار والتاريخ، المادة والطاقة، علوم الفلك, علوم الأرض، البحار والمياه، السحب والرياح, النبات، الحشرات والحيوانات، علوم الطب, الهندسة الوراثية والاستنساخ وعلم الأجنة, الصيدلة والأمراض, علم النفس, الأحلام والباراسايكولوجي، الاقتصاد والاجتماع ، وأيضاً السبق القرآني والنبوي في ما سيكون من أمر آخر الزمان وأهوال القيامة... وكل ذلك مكتوب بشكل علمي رصين وأسلوب ميسر ومشوق معزز بصور فوتوغرافية وخرائط , ولكنه يظل غيضاً من فيض ونقطةً في بحر محيط ليس له نهاية من إعجاز هذا القرآن الذي لا تنقضي عجائبه حتى قيام الساعة.

يأتي هذا المسلسل بعد كتابي (**المنظار الهندسي في القرآن الكريم ــ ٨٥٠ صفحة**) طبع ونشر دار المسيرة في عمان والمتخصص بالسبق الهندسي بكل اختصاصاته والعددي والرقمي في القرآن الكريم, ثم كتاب (**القرآن منهل العلوم- ٣٣٠ صفحة**) طبع الجامعة الإسلامية ببغداد والمتخصص بتأصيل الإعجاز وشروطه وفقهه، فضلاً عن كتب أخرى... كذلك بعد الحلقات المرئية المسلسلة (**آيات وحوار ــ ٣٠ حلقة-**) التي سجلتها مع الأخوة الأستاذ الدكتور أنيس الراوي والأستاذ رعد الخزرجي والشيخ الدكتور أحمد عبد الغفور السامرائي والشيخ الدكتور محمد صالح السامرائي لمحطة راديو وتلفزيون العرب (ART)- قناة الأوائل وقناة إقرأ الفضائيتين. وقد لاقت صدىً ونجاحاً طيباً في جميع الدول العربية والأجنبية التي عرضت فيها إذ أعيد عرضها لعدة مرات وترجمت بعض حلقاته إلى لغات أجنبية والحمد لله رب العالمين. وكذلك حلقات (**العلم في القرآن ــ ٣٠ حلقة-**) مع الأستاذ الدكتور أنيس الراوي لحساب قناة العراق الفضائية, وحلقات (**سر الحديد ــ ٣٠ حلقة-**) لحساب شركة كوديا للإنتاج الفني.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أسـأل الله تعالـى أن يكـون عملـي كلـه خيـر وأن يكـون خالـصاً لوجهه الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلقه وصفوة أنبيائه سيدنا محمد النبي الأمين ρ وآله الطيبين الطاهرين وصحابته المجاهدين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

المؤلف

بغداد-العراق

١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الكتاب الأول

علم الآثار والتاريخ

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الكتاب الأول
الآثار والتاريخ

المقدمة

قد يقول البعض أن الخوض في قصص تتعلق بأقوام سبقوا من أقوام الأنبياء وغيرهم تطرقت إليها الكتب السماوية السابقة, فما وجه الإعجاز القرآني في هذا الموضوع. فنقول وبالله التوفيق:

١- إن القرآن الكريم فصل في هذه القصص بشكل لم يسبق إليه أي كتاب سبق, وأوضحت السنة المطهرة ما كان غامضاً في شرح الآيات. بل إن هناك حالات ودقائق لأمور لم تشر إليها الكتب السابقة وأشار إليها القرآن الكريم وفصلها, وهو الكتاب الذي لم ولن يحرف لأنه في حفظ الباريء عز وجل.

٢- هناك تناقضات واضحة ومنافية للعقل والمنطق ولمنزلة الأنبياء الكرام عليهم السلام وردت, بل وحتى سوء أدب مع بعضهم في النسخ التي وصلتنا من هذه الكتب, وهذا أكبر دليل على تحريف هذه الكتب من قبل أقوام لم يفهموا حقيقة التوحيد الذي أرسل به جميع الأنبياء عليهم السلام, فأتبعوا الدين لأهوائهم وشهواتهم, فحرفوا قصص الأنبياء بما لا يليق بهم أو بالمرسِل تبارك وتعالى. وأنك لا تجد تشابهاً بين قصة وأخرى, وبين كتاب وآخر. بينما في الكتاب العزيز أثبتت التنقيبات الآثارية والرقم التاريخية دقة المعلومة القرآنية كما سنرى في هذا الكتاب وفي هذه السلسلة عموماً.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الفصل الأول

سفينة نوح
(عليه السلام)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الفصل الأول
سفينة نوح (عليه السلام)

ذكرت قصة سيدنا نوح υ في التوراة والإنجيل والقرآن. ولقد فصل القرآن الكريم هذه القصة في سورة خاصة اسمها سورة نوح(*), وكذلك في آيات مباركات عديدات أخرى – ذكر كلمة نوح في الكتاب العزيز في ٣٣ آية- بدءاً من بعثته υ إلى قومه وتكذيبهم إياه, ومن ثم استمراره وصبره الطويل عليهم طيلة عمره الذي وصل إلى ٩٥٠ عاماً كما صرح القرآن الكريم:

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}, (العنكبوت:١٤). وقد أثبت علمياً أن الإنسان الأول كان أطول قامة وأطول عمراً من إنساننا الحالي لأسباب يطول شرحها.

وقد حاول عليه السلام طيلة هذه الفترة الطويلة أن يقنع قومه - وكانوا من أهل العراق القديم - أن الله تعالى هو خالقهم وهو الأولى بالعبادة, ولكنهم صدوه وحاربوه واستهزئوا به وبأصحابه, فحذرهم من عاقبة أمرهم هذا:

{ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} (هود:٣٢) . واستمر صابراً عليهم حتى أوحي إليه أنه لا أمل من قومه:

{ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} (هود:٣٦). فدعا عليه السلام ربه أن ينصره على هؤلاء القوم الكافرين:

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) } (القمر).. { قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً}

(*) انظر القصة كاملة في الملحق (١).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

(نوح:٢١).. { وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً} (نوح:٢٦).
فأمره الله تعالى بصناعة السفينة, وكلما مر عليه نفر من قومه استهزئوا به, ولكنه توعدهم بأنهم سيندمون على هذا الأمر أي ندم:
{ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ(٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) } , (هود). وأوحى له الله تعالى أن الماء سيغمر المكان وأن عليه أن يحمل أهله - إلا امرأته وابنه – وأصحابه ومن كل المخلوقات زوجين اثنين, فإذا استقر عليها حمد الله وشكره على فضله بنجاتهم من غضبه على القوم الكافرين:
{ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٢٨)} , (المؤمنون).
وحصل الطوفان الهائل الذي غطى منطقة ما بين النهرين بأسرها وغرق القوم وهم يستنجدون بعد أن أيقنوا بصدق ما جاءهم به نوح ט ولكن بعد فوات الأوان. وقد أثبتت البحوث الآثارية والجيولوجية في المنطقة والتي قامت بها عدة فرق علمية استكشافية من مختلف دول العالم من أن الغرين والطمى في المنطقة يدلل من غير أي شك على حصول طوفان عظيم في الحقبة السومرية من تأريخ العراق القديم.
وبعد انتهاء الأمر جاء أمر الله تعالى بتوقف تدفق الماء من السماء ومن الأرض, فاستوت السفينة على جبل الجودي وهبط منها سيدنا نوح ט ومن معه لتبدأ البشرية رحلة جديدة وبنفس القانون الإلهي الذي لا يتغير, هذا ما نص عليه القرآن الكريم:

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

{وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}, (هود:٤٤).. {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ}, (هود:٤٨).

هذه التفاصيل ذكرت بعضها في الكتب السماوية الأخرى ولكن ليس بهذا الأسلوب الرائع وهذه الدقة, فمثلاً ذكر العهد القديم أن السفينة استقرت على جبل آرارات الواقع شرق الأناضول والذي يقطنه أغلبية من الأرمن من سكان تركيا الحالية, بينما صرح القرآن الكريم أن الجبل هو الجودي والذي يقع في جنوب شرق الأناضول وكما سنوضح بالخرائط والصور. هنا يبرز سؤالين مهمين:

١. أيهما أدق؟.

٢. هل هناك اختلاف والكتابين من عند الله تعالى؟.

قامت عدة فرق بحثية علمية من مختلف الجنسيات العالمية تدين الديانة النصرانية بتتبع هذه المسألة حتى حصل الاكتشاف الذي حيرهم. إذ اكتشفوا أن سفينة نوح ט وجدت لها آثار فوق جبل في تركيا ولكنه ليس جبل آرارات بل إنه جبل آخر اسمه جبل (الجودي), فتحيروا وزادت حيرتهم وغضبهم معاً عندما علموا أن القرآن قد صرّح بهذا قبل مئات السنين، بل وأكد القرآن الكريم على أن السفينة بقيت وستبقى كآية ودليل على صدق القرآن الكريم وعلى قدرة الله تعالى في تعذيب الأقوام المكذبة والجاحدة, فهل من معتبر؟.

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ* فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ* فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ* فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ* وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ* وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ* وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ },

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

(القمر:٩-١٥).

فسأل سائل منهم قال (ما هذا القرآن؟), فأجابه أحد القسيسين أنه كتاب اكتتبه رجل ادعى النبوة في جزيرة العرب أخذ كلامه من الإنجيل, فزاد عجب الرجل, إذ كيف يأخذه من الإنجيل وما موجود في الإنجيل فيما يتعلق بهذه المسألة لا يطابق الواقع الذي توصلوا إليه بالبحث المضني, بينما كان القرآن دقيقاً في تحديد الواقعة والمكان. كيف يمكن لرجل من أهل الصحراء أن يعلم كل هذا إذن؟.

فكان هذا الرد البسيط من هذا الرجل أبلغ رد على من لا يعرف حقيقة التوحيد وعظمة الرسول ρ ويدعي أن رسول الله ρ قد اختط القرآن بيده –حاشاه - ناسخاً من أحبار اليهود وقساوسة ورهابنة النصارى. إنه وحي الله تعالى وعلمه الأزلي بالأشياء, إنه كتاب الله المعجز الذي لا يعتريه التحريف لأنه في عهدة منزله سبحانه, أنظر إلى رد القرآن على أمثال هؤلاء المساكين:

{ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً} , (النساء:٨٢)..

{ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} , (النحل:١٠٣)..

{ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} , (العنكبوت:٤٨) .

الخرائط والمخططات المبينة أدناه توضح المنطقة التي رست فيها سفينة نوح عليه السلام –جبل الجودي - والواقعة بين العراق وتركيا، والفرق بينها وبين منطقة آرارات التي ذكرت في العهد القديم والواقعة شرق الأناضول قرب أرمينيا وغرب إيران، والمنظر مأخوذ من ثلاث ارتفاعات وصولاً للبعد الذي يحدد المنطقة جغرافياً بالضبط.

أما الصور التي تليها توضح الفريق البحثي الذي اكتشف المنطقة وحددها بالضبط.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ارتفاع ٣٥٠٠ كم عن سطح الأرض

ارتفاع ١٥٠٠ كم عن سطح الأرض

جبل الجودي

جبل آرارات

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

منطقة المثلث العراقي – الإيراني – التركي التي تحوي جبل آرارات وجبل الجودي

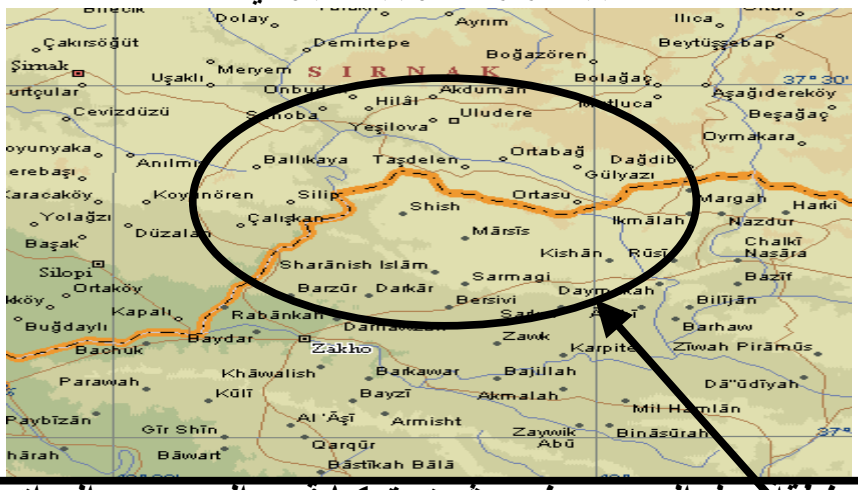

منطقة جبل الجودي جنوب شرق تركيا قرب الحدود مع العراق (المنطقة المحددة بالدائرة - ارتفاع ١٠٠٠ كم عن سطح الأرض)

منطقة جبل آرارات شرق الأناضول (منطقة إكدير قرب الحدود

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

مع إيران وأرمينيا) كما حددتها موسوعة إناكارتا ٢٠٠٣م
(ارتفاع ١٥٠ كم)

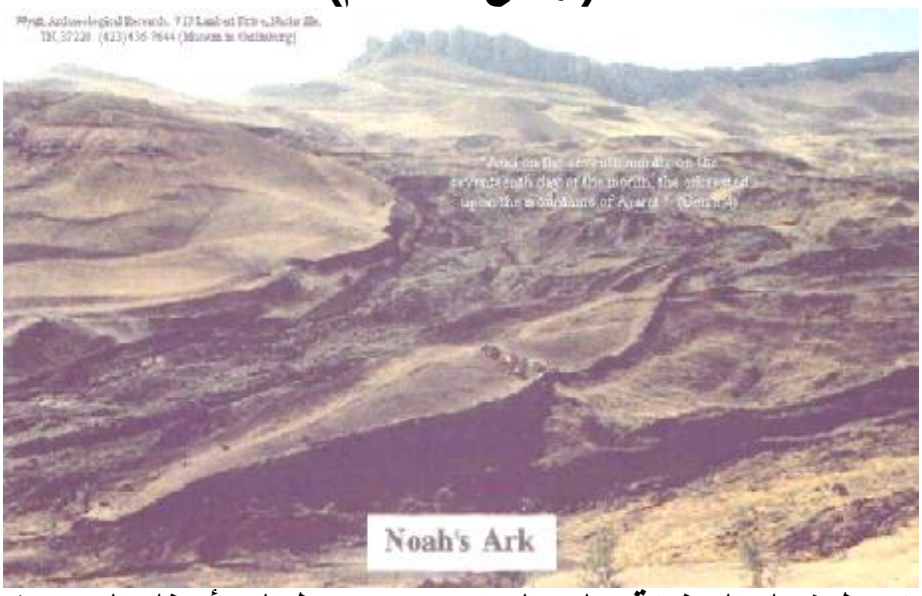

لاحظ شكل السفينة على التراب من وسط إلى أسفل الصورة

رجال من الفريق البحثي يقفون أمام إحدى الصخور
التي كانت مرسى للسفينة بجنوب تركيا

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

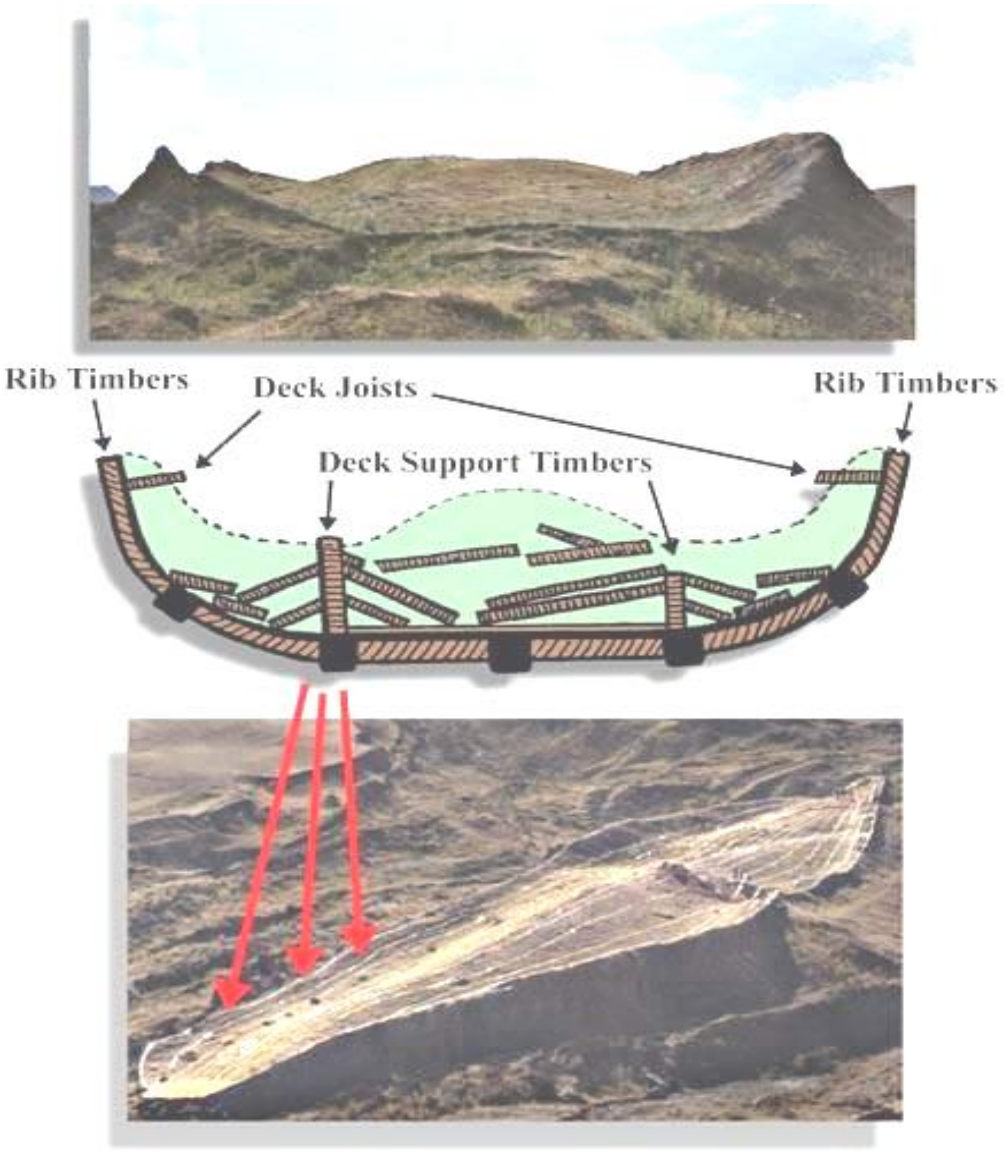

أشكال توضح آثار السفيتة مع الفريق الآثاري الغربي الذي اكتشف موقع السفينة على جبل الجودي في تركيا وكما صرح القرآن الكريم.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وأما لماذا هذا الاختلاف بين القرآن والإنجيل وهما من عند الله تعالى؟, فهذا هو السبب الرئيسي لتعهد الله تعالى بحفظ القرآن الكريم من أن يعتريه ما اعترى الكتب السابقة من تدخل البشر وتحريفهم لها, فهذه هي طبيعة البشر وديدنهم في تحوير القوانين حتى السماوية منها وفق أهواءهم وشهواتهم رغم تحذير الأنبياء عليهم السلام لهم من مغبة ذلك, فالأنبياء عليهم السلام يبلغون رسالات ربهم للناس, ولكن الناس هم الذين يحرفون كلام الله وتعاليمه ويزيدون وينقصون في كتبه المنزلة عليهم حسب أهواءهم, وهذا بالضبط ما حصل للتوراة والإنجيل. وقد صرح القرآن الكريم بهذه الحقيقة موبخاً أصحابها ومتوعداً إياهم بالويل والثبور:

{ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}، (البقرة :٧٩).

أما القرآن الكريم فلا يمكن أن يتبدل ويحرف رغم كل محاولات اليهود القديمة والحديثة بذلك, كيف لا وقد تعهد بحفظه الرحمن الرحيم الذي أنزله على رسوله : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر:٩).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الفصل الثاني

قوم لوط
(عليه السلام)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الفصل الثاني
قوم لوط (عليه السلام)

لعل في قصة قوم لوط التي ذكرت في القرآن الكريم[*] في سور عدة ما يدفع إلى العجب، وقد يشك الإنسان لوهلة مما ورد في هذه القصة من آيات وأحاديث وهي مذكورة في كتب التفاسير وكتب قصص الأنبياء. وما يهمنا هنا هو ما حصل من عقاب إلهي لقوم هذه القرية وهي قرية سدوم في منطقة تسمى عمق السديم بأرض الأردن قرب البحر الميت والذي يسمى ببحر لوط أيضاً بسبب ما فعلوه من أعمال قبيحة خبيثة تأباها النفس البشرية، وقد حذرهم منها سيدنا لوط ع إلا أنهم لم يأبهوا بتحذيره بل وتحدوه أن يأتيهم بالعذاب الذي يعدهم به، بل وهددوه بالقتل رجماً بالحجارة إن هو لم يكف عن دعوته. عند ذلك دعا لوط ربه أن ينجيه وأهله مما يعملون فأنجاه الله وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين فهلكت مع قومها الذين أهلكهم الله بالصيحة كما قال تعالى { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ(٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) } (الحجر)[١]. فقد أرسل الله تعالى الملائكة بهيئة بشر وقالوا له أن العذاب سيأتي على قومه في الصباح فحمل سيدنا جبريل ع الأرض وهم نائمون (أي أرض سدوم) وقلبها جاعلاً عاليها سافلها بينما أهل لوط أمروا بالخروج من المدينة وعدم الالتفات إذا سمعوا الصيحة، إلا أن امرأته التفتت فأصابها ما أصاب قومها جزاءاً لها بعدم طاعتها لنبي الله لوط ع. فيا ترى هل يعقل أن تقتطع جزء من الأرض وتقلب على عكسها كما جاء في القصة؟.

(*) لاحظ القصة كاملة في الملحق (٢).
(١) المستفاد من قصص القرآن، د. عبد الكريم زيدان، ج/١، ص٢٣١.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

هذا ما أثبتته الأبحاث الآثارية والجيولوجية فعلاً, فقد أثبتت أن طبقات الأرض للمنطقة حول مدينة سدوم مرتبة بشكل معين معاكس للطبقات التي تحويها المنطقة المحيطة بقرية سدوم وبتسلسل معاكس تماماً، كما وأن امرأة لوط التي حنطت أثناء التفاتها لا يزال تمثالها شاخصاً واقفاً لحد الآن يتحدى المعاندين والمكابرين. وقد قام فريق بحثي أمريكي مؤخراً بدراسة المنطقة جيولوجياً, وتبين له أن طبقات الأرض معكوسة تماماً في تلك المنطقة الواقعة قرب البحر الميت في الأردن, وكذلك وجدت امرأة سيدنا لوط عليه السلام وهي واقفة محنطة على شكل حجر بهيئته البشرية, وذلك عندما استدارت لتنظر ماذا حدث لقومها عندما أخذتهم الصيحة مشرقين عند خروج لوط بأهله كما أمر, وهذا كله مصور بفلم علمي عرض على شاشات التلفاز في العالم كله, وهو مصداقٌ لقوله تعالى:

{قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}(هود:٨١).

وقد ذكر القرآن الكريم هذه القصة مراراً مذكراً قريش الذين عاندوا رسول الله ρ بأن لهم في هذه القصة وتمثال امرأة لوط العبر الكافية بأنهم قد ينالوا نفس العقاب إذا ما عاندوا رسول الله ρ، وهذا التحدي نفسه لا يزال قائماً على صحة القرآن وصدق حقيقة وفلسفة وجود الإنسان حتى قيام الساعة.

إذن، فالإعجاز القرآني في مجال الجيولوجيا واضح بين هنا فضلاً عن الجانب الآثاري والتأريخي, وهو قوله تعالى: { ...عاليها سافلها... } (هود: ٨٢، والحجر: ٧٤)، والتي تبين أن طبقات الأرض في المنطقة قد عكست أي جعلت بتدرج معاكس لما حولها[١].

(١) يراجع كتابنا المنظار الهندسي للقرآن الكريم، دار المسيرة، عمان، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١م.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الفصل الثالث

جثة فرعون مصر

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الفصل الثالث
جثة فرعون مصر(*)

ثم تأتي قصة فرعون المعروفة وتحديه لسيدنا موسى υ حتى أغرقه الله في البحر الأحمر بعد أن جيش جيشاً لاحق به سيدنا موسى υ ومن آمن معه لكي ينالوا منهم وعندما وصل القوم إلى البحر الأحمر والجيش وراءهم ظنوا أنهم هالكون إلا أن سيدنا موسى دعا الله أن ينجيهم، ففتح الله البحر لهم نصفين من الماء كل نصف كالجبل الكبير وعبر موسى υ ومن معه في ممر يابس غير مبلل أو رطب : { وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخَافُ دَرَكاً وَلا تَخْشَى }, (سورة طه: ٧٧)، فحاول فرعون ومن معه اللحاق بهم حتى اذا عبر قوم موسى كلهم أطبق البحر على جيش فرعون وغرقوا كلهم وطافت جثة فرعون على البحر ثم أخِذت وحُنطت وهذا ما ذكره القرآن الكريم { فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ }, (يونس: ٩٢). وقد كان هذا الفرعون المقصود بالآية مجهولاً حتى أكتشف مؤخراً أن الفرعون المحنط في متاحف القاهرة في أنفه حبات رمل عندما أخذت وفحصت وجد أنها من حبات رمل البحر الأحمر وهو البحر الذي عبر به موسى مع قومه من مصر إلى الشام.

(*) راجع قصة سيدنا موسى عليه السلام كاملة في الملحق (٣).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

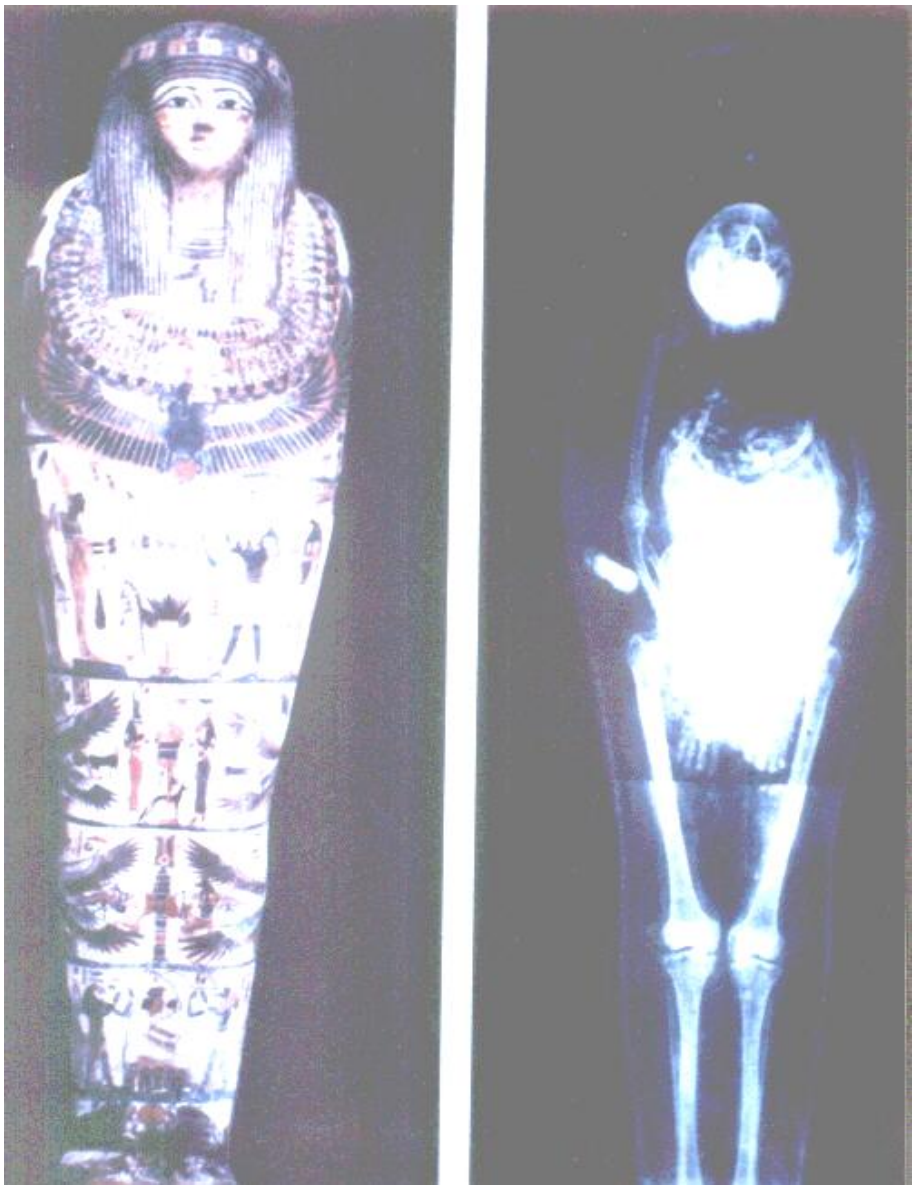

صورة لتابوت الفرعون مع صورة بالأشعة السينية لها.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

جثة فرعون موسى التي تركها الله تعالى آية لكل معتبر

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فقد كشفت مجلة باري ماتش الفرنسية الصادرة مؤخراً أن فريقا طبياً فرنسياً يتكون من ١١٢ طبيباً أعلنوا أن فرعون مصر في زمن موسى عليه السلام مات غرقاً كما أخبر بذلك القرآن الكريم قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة.. أعلنت ذلك الدكتورة كريستسن نيلكوت رئيسة الفريق الطبي الفرنسي، وأضافت أن الفحوص التي أجريت على جثة فرعون المعروضة الآن في المتحف المصري أثبتت وجود حبيبات رملية بحرية وصحراوية على جسده وشعره ووجود فطريات على جلده سببت تآكلاً تم علاجه بالأشعة ليبقى بدنه في ذمة الخلود كما أخبر الله تعالى عنه.

وقوله تعالى: {فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية}. قال ابن عباس وغير واحد: شك بعض بني إسرائيل في موت فرعون، حتى قال بعضهم: إنه لا يموت، فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع، قيل: على وجه الماء، وقيل: على نجوة من الأرض، وعليه درعه التى يعرفونها من ملابسه ليتحققوا بذلك هلاكه ويعلموا قدرة الله عليه، ولهذا قال: { فاليوم ننجيك ببدنك} أي مصاحبًا درعك المعروفة بك { لتكون} أي أنت آية { لمن خلفك } أي من بني إسرائيل، دليلاً على قدرة الله الذى أهلكه. ولهذا قرأ بعض السلف: { لتكون لمن خلقك آية}، ويحتمل أن يكون المراد ننجيك مصاحبًا لتكون درعك علامة لمن وراءك من بني إسرائيل على معرفتك وأنك هلكت، والله أعلم، وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء، كما قال الإمام البخاري في صحيحه: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قدم النبي ρ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: **(ما هذا اليوم الذي تصومونه؟)**، فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، قال النبي ρ : **(أنتم أحق بموسى منهم فصوموا)**. وأصل الحديث في الصحيحين وغيرهما، والله أعلم(*).

(*) لاحظ الملحق (٣).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وجدير بالذكر أن فرعون الذي لاحق بقواته موسى عليه السلام واتباعه حتى ساحل البحر الأحمر فانفلق البحر ليمر من خلاله المؤمنون ثم أنطبق مغرقا فرعون وأتباعه يدعى (منفتاخ بن رمسيس الثاني) الذي اكتشفت جثته في حفريات الأقصر عام ١٩٠٠ من قبل علماء الآثار في قبر لم يكن مهيئاً لمثله أبداً، وفسر العلماء ذلك أن المصريين لم يهيئوا له قبر لأنهم لم يكونوا يتوقعون موته نتيجة لادعائه الألوهية وتصديقهم له بالمقابل. وجاءت كشوف الفريق الطبي مؤخراً بناءً على طلب علمي فرنسي لأجراء العناية اللازمة بالأشعة والأجهزة المتطورة لتلافي بعض الضرر الحاصل على جثة فرعون من جراء هذا الزمن الطويل الذي يزيد على أربعة آلاف سنة منذ حادث الغرق، وكل ذلك مصداق للقرآن الكريم الذي ذكر أن جثة فرعون ستبقى في ذمة الخلود بعيداً عن التلف، كآية من آيات الله تعالى في خلقه.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الفصل الرابع

قصة أصحاب الكهف

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الفصل الرابع
قصة أصحاب الكهف

ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة فقال : (حدثني شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: "بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم:سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء .. فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ρ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالا:إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. قال: فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن. فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل متقول تروا فيه رأيكم:سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول. ما كان من أمرهم ؟ فإنهم كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها. ما كان نبؤه ؟, وسلوه عن الروح ما هو ؟, فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .. فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش، فقالا : يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد. قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور ... فأخبروهم بها. فجاءوا رسول الله ρ فقالوا : يا محمد أخبرنا .. فسألوه عما أمرهم به. فقال لهم رسول الله ρ : (**أخبركم غداً عما سألتم عنه**)، - ولم يستثن- فانصرفوا عنه. ومكث رسول الله ρ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة؛ وقالوا : وعدنا محمد غدا، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه. وحتى أحزن رسول اللهρ مكث الوحي عنه؛ وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة . ثم جاءه جبريل υ من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية،

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

والرجل الطواف، وقول الله عز وجل (ويسألونك عن الروح ...) الآية .

هذه رواية .. وقد وردت عن ابن عباس - رضي الله عنهما - رواية أخرى في سبب نزول آية الروح خاصة، ذكرها العوفي. وذلك أن اليهود قالوا للنبي ρ: أخبرنا عن الروح، وكيف تعذب الروح التي في الجسد وإنما الروح من الله ؟ ولم يكن نزل عليه شيء، فلم يحر إليهم شيئاً، فأتاه جبريل υ بالوحي الكريم من قوله تعالى : {وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً }, (الإسراء:٨٥).. إلى آخر الرواية .

في قصة أصحاب الكهف ما يبعث على العجب كما وصفهم الله تعالى: { أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً}, (الكهف:٩). فهم كما هو معروف فتية ذكرهم القرآن جاعلاً من عددهم محل جدلٍ كبير اختُلفَ فيه كثيراً حتى أثبت مؤخراً تطابقه مع ما جاء في القرآن الكريم.

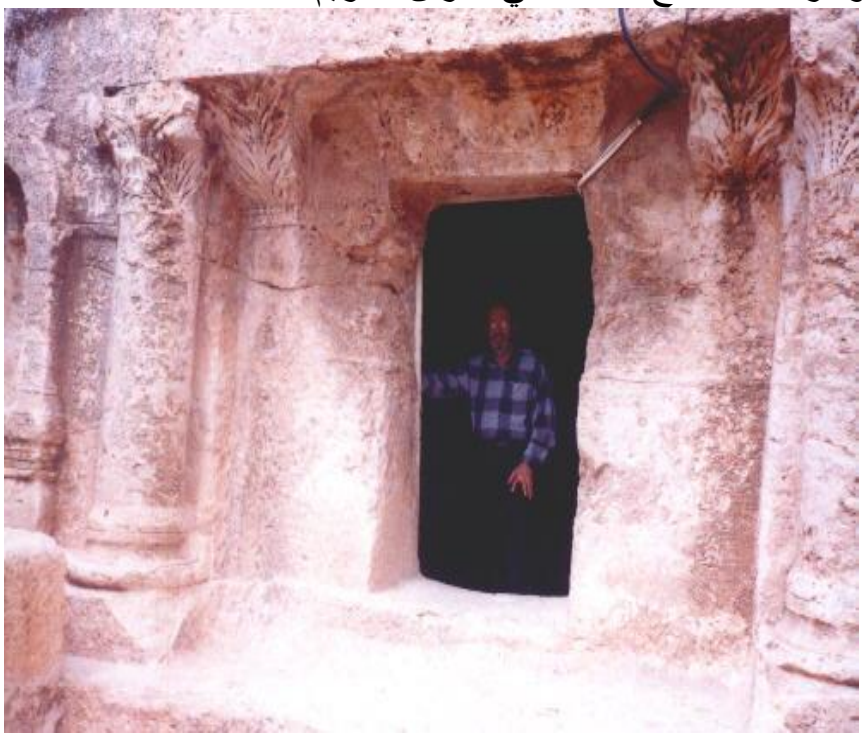

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

مدخل باب الكهف

أما مكانهم فظل مجهولاً حتى اكتشف مؤخراً، حيث تقول الآيات الكريمات في سورة الكهف أنهم مجموعة من الشباب هربوا من قومهم لما رأوهم على الباطل ودخلوا كهفاً يعبدون الله تعالى فيه ومعهم كلبهم، فأنامهم الله ثلاثمائة وتسع سنين ثم بعثهم الله من نومهم ليجعلهم لأهل زمانهم آية على قدرة الله على البعث بعد الموت، وبنوا عليهم مسجداً ليجعلوه آية للناس.

وقد اختلف في عددهم ومدة لبثهم في الكهف، فلما عجز المفسرون عن ذلك قالوا أن الله أعلم بهم وبمدتهم وعددهم ومكانهم، حيث قال الله تعالى عن قصة هؤلاء الشبيبة: { وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (١٨) وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً (٢٠) وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (٢٢)} , (الكهف).

وقد ظل الجدال قائماً بين المفسرين حول عددهم ومكانهم وصدق الله القائل { ...مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ... }، فقد توصل فريق بحثي آثاري في الأردن عام ١٩٦٣م إلى اكتشاف الكهف الخاص

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

لأصحاب الرقيم في مدينة الرقيم الأردنية التي تبعد ٧كم عن عمان الحالية (فيلادلفيا قديماً)، وكذلك المسجد الذي بني عليهم ووجد فيه ثمانية قبور مع صورة تمثل شكل كلب على جدران الكهف(*)، وإذا ما لاحظت الآية الكريمة فإنها تذكر { ..سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ ..}، أي أن كلامهم غير مبني على أسس علمية أو يقين ثابت، لكنه عندما ذكر { ..وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ.. }، فالواو هنا واو الابتداء وعند العرب الأرقام بعد الرقم ٧ تضاف الواو لها فتسمى واو الثمانية كما في قوله تعالى من سورة الحاقة: { سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) }. ثم اتبع القرآن الكريم سرد القصة بقوله تعالى: { ...قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ...}، قال سيدنا ابن عباس τ (أنا من هؤلاء القليل).

(*) تذكر الموسوعة البريطانية أن أهل الكهف موجودون في تركيا.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

يقول السيوطي في الإتقان (ج ٢ / ص ٣٨٩): (أصحاب الكهف تمليخا وهو رئيسهم والقائل فابعثوا أحدكم بورقكم والقائل فأووا إلى الكهف والقائل ربكم أعلم بما لبثتم، وتكسلمينا وهو القائل كم لبثتم، ومرطوش وبراشق وأيونس وأريسطانس وشلطيوس).. ويقول رحمه الله تعالى أيضاً في مكان آخر (ج٢/ ص٤٧٠):(والمنقول إما عن المعصوم ρ أو غيره، ومنه ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره، ومنه مالا يمكن ذلك. وهذا القسم الذي لا يمكن معرفة صحيحه من ضعيفه عامته مما لا فائدة فيه ولا حاجة بنا إلى معرفته وذلك كإختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف وإسمه وفي البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة وفي قدر سفينة نوح وخشبها وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر ونحوه)... وفي التبيان في تفسير غريب القرآن نقرأ (ج١ / ص٢٧١): (الرقيم لوح كتب فيه خبر أصحاب الكهف ونصب على باب الكهف، ويقال أنه اسم الوادي الذي فيه الكهف).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

شكل يوضح بعض قبور أهل الكهف

والرقيم الذي قصه لنا القرآن الكريم اكتشف في الأردن

لقد حصل اكتشاف الكهف عام ١٩٦٣م، وهو غيب لم يعرف إلا بعد أكثر من ١٤٠٠ عام من نزول القرآن الكريم. ومن اللطائف أن صاحب كتاب خوارق الإبداع (شقيقه قره كله) ذكر أن أفلاطون

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

شاهد السجن الرهيب الذي كان (رئيس) الطاغية يسجن أعداءه عندما زار (سيراكوسا)، وقد اكتشف ذلك عياناً بياناً وكما أسلفنا.

وفي قصة أصحاب الكهف أيضاً سبق قرآني من نوع آخر، وهو السبق العددي المتعلق بفرق السنين الشمسية عن القمرية، فقوله تعالى بعدما حدد مدة النوم بـ ٣٠٠ عام {..وازدادوا تسعاً..}، يبين لأهل الحساب والفلك بما لا يدع مجالاً للشك الفرق الزمني بين التقويمين، فالسنة القمرية تقل عن الشمسية بحوالي ١١ يوماً، وعند حساب مدة ٣٠٠ عام تجد أن الفرق بين التقويمين لهذه المدة هو بالضبط ٩ سنوات، فسبحان الله الذي أحصى كل شيء عدداً، وما أعظم شأن هذا الكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وعدّها عدّا.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الفصل الخامس

دلائل تأريخية أخرى

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الفصل الخامس
دلائل تأريخية أخرى

أكد القرآن الكريم على حقائق تاريخية لم تكن معروفة في زمن الرسالة بل اكتشفت في وقت متأخر مثل:

أ– إن أهل مصر كانوا يسمون حاكمهم فرعون عندما يكون مصرياً ويسمونه ملكاً عندما يكون من غير مصر، كما كان في زمن سيدنا يوسف عليه السلام حيث كان حاكم مصر هكسوسياً.

ب – أن الزوج في مصر القديمة كان يسمى سيد وأن الوزير كان يسمى العزيز وهذا واضح في سورة يوسف وأيدته الأبحاث الحديثة.

جـ– أن عاداً وثمود ليستا أساطير بل أنهما مذكورتان في تاريخ بطليموس.

د- في قصة ملكة سبأ (بلقيس) مع النبي سايمان عليه السلام التي أوردها القرآن الكريم جاءت القصة لتشمل تفاصيل لم ترد في الكتب السماوية السابقة كقصة تفقد سيدنا سليمان للجيش العرمرم الذي كان يملكه من الحيوان والجن فضلاً عن جنود الإنس، ومنها قصة الهدهد وقصة الصافنات الجياد وغيرها: { وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) }، (النمل)... {إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ }، (ص:٣١).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقد أثبت فريق بحثي عالمي مكون من عالم الآثار ويندول فيليبس ومن بعده اخته ميدلين فيليبس مع فريق بحثي متخصص من جامعة كليغاري الكندية من إثبات تفاصيل القصة وتطابق التحريات الآثارية مع مجريات عديدة منها.

وقد تنبأ القرآن بحوادث وقعت فعلاً:

أ– انتصار الروم على الفرس بعد أن هُزموا أمامهم وحدد لذلك بضع سنين وتحقق النصر مثل ما ذكر في القرآن في سورة الروم بالتحديد بقوله تعالى: { الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) }، (الروم)... نقرأ بعض ما قاله أهل التفسير رحمهم الله تعالى في هذه الآية المباركة:

١. في **إعجاز القرآن (ج١/ ص٤٨)** مانصه: (فأما الفصل الذي بدأنا بذكره من الإخبار عن الغيوب والصدق والإصابة في ذلك كله فهو كقوله تعالى { قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً} (الفتح:١٦) ، فأغزاهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما إلى قتال العرب والفرس والروم. وكقوله تعالى{ الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) }، وراهن أبو بكر الصديق رضى الله عنه في ذلك وصدق الله وعده . وكقوله في قصة أهل بدر {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الْكَافِرِينَ } (لأنفال:٧).. وكقوله تعالى { سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} ، (القمر:٤٥).. وكقوله تعالى { لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً}، (الفتح:٢٧)... وكقوله تعالى { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } (النور:٥٥)، وصدق الله تعالى وعده في ذلك كله.. وقال في قصة المخلفين عنه في غزوته { فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ } ،(التوبة:٨٣)، فحق ذلك كله وصدق ولم يخرج من المنافقين الذين خوطبوا بذلك معه أحد).

٢. في **مناهل العرفان (ج٢/ ص٢٦٨)** مانصه: (وأما غيب المستقبل فنمثل له بأمثلة عشرة، المثال الأول إخبار القرآن عن الروم بأنهم سينتصرون في بضع سنين من إعلان هذا النبأ الذي يقول الله فيه { الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) }، (الروم).. وبيان ذلك أن دولة الرومان وهي مسيحية كانت قد انهزمت أمام دولة الفرس وهي وثنية في حروب طاحنة بينهما سنة ٦١٤م فاغتم المسلمون بسبب أنها هزيمة لدولة متدينة أمام دولة وثنية

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وفرح المشركون وقالوا للمسلمين في شماتة العدو إن الروم يشهدون أنهم أهل كتاب وقد غلبهم المجوس وأنتم تزعمون أنكم ستغلبون بالكتاب الذي أنزل عليكم فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم فنزلت الآيات الكريمة يبشر الله فيها المسلمين بأن هزيمة الروم هذه سيعقبها انتصار في بضع سنين أي في مدة تتراوح بين ثلاثة سنوات وتسع ولم يك مظنونا وقت هذه البشارة أن الروم تنتصر على الفرس في مثل هذه المدة الوجيزة بل كانت المقدمات والأسباب تأبى ذلك عليها لأن الحروب الطاحنة أنهكتها حتى غزيت في عقر دارها كما يدل عليه النص الكريم في أدنى ا لأرض ولأن دولة الفرس كانت قوية منيعة وزادها الظفر الأخير قوة ومنعة حتى إنه بسبب استحالة أن ينتصر الروم عادة أو تقوم لهم قائمة راهن بعض المشركين أبا بكر على تحقق هذه النبوءة ولكن الله تعالى أنجز وعده وتحققت نبوءة القرآن سنة ٦٢٢ م الموافقة للسنة الثانية من الهجرة المحمدية ومما هو جدير بالذكر أن هذه الآية نفسها حملت نبوءة أخرى وهي البشارة بأن المسلمين سيفرحون بنصر عزيز في هذه الوقت الذي ينتصر فيه الروم ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ولقد صدق الله وعده في هذه كما صدقه في تلك وكان ظفر المسلمين في غزوة بدر الكبرى واقعا في الظرف الذي صدر فيه الرومان).

وفي هذه الآية المباركة إعجاز من نوع آخر، وهو جيولوجي وطبوغرافي، إذ أن منطقة الأحداث التي وقعت فيها المعركة وهو قريبة من البحر الميت تعتبر أخفض منطقة في العالم عن مستوى سطح البحر كما اكتشف حديثاً الأمر الذي أخبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى { فِي أَدْنَى الْأَرْضِ..}، أي أخفضها، فسبحان الله.

ب– منذ سنة ٣٠٠م إلى أن دخل الإسلام في اليمن – أي بعد هذا التأريخ بما يزيد على الثلاثة قرون ونصف- عرفت الدولة في

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

هذا العهد بالدولة الحميرية الثانية, وفي هذا العهد توالت عليها الاضطرابات والحوادث, وتتابعت الانقلابات والحروب الأهلية التي جعلتها عرضة للأجانب كالرومان الذين دخلوا عدن, وبمعونتهم دخل الأحباش لأول مرة إلى البلاد عام ٣٤٠م, مستغلين التنافس بين قبيلتي همدان وحمير, واستمر احتلالهم حتى عام ٣٧٨م, ثم نالت اليمن استقلالها. لكن سد مأرب بدأ بالتصدع حتى وقع السيل العظيم الذي دمر المنطقة بأسرها وشرد أهلها عام ٤٥٠م أو ٤٥١م, وهذه الحادثة ذكرها القرآن العظيم في سورة سبأ بقوله تعالى:

{ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ}, (سبأ:١٦).

وفي سنة ٥٢٣ م قاد ذو نواس اليهودي حملة على النصارى من أهل نجران, وحاول صرفهم عن النصرانية قسراً, ولما أبوا شق لهم الأخدود العظيم وأضرم النيران فيه وألقاهم فيها ظلماً وعدواناً, وهذه القصة فصلها القرآن الكريم في سورة خاصة لأهميتها وهي سورة البروج بقوله تعالى: { قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ(٤)النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ(٥)إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ(٦)وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ(٧)وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(٨)الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(٩) }.

وإثر ذلك نقم الرومان على ملك اليمن اليهودي وساعدوا الأحباش على غزوها ثانية فكان لهم ذلك بقيادة أرياط عام ٥٢٥م, واستمر حكمه عليها حتى اغتاله أحد قواده أبرهة بن الأشرم عام ٥٤٩م, وحكم بدله اليمن بعد أن استرضى ملك الحبشة, وهذا الأشرم نفسه الذي أراد هدم الكعبة لصرف العرب عن قدسيتها, فجيش الجيوش وعلى رأسها فيل عظيم وسار بالجيش حتى وصل مشارفها, فسلط الله تعالى عليه الطير الأبابيل التي قضت عليه وعلى جيشه الباغي, وهذا العام سمي عام الفيل وهو العام الذي ولد فيه المصطفي ρ . هذه الحادثة ثبتها القرآن الكريم بسورة

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

خاصة لأهميتها أيضاً هي سورة الفيل بقوله تعالى[1]:
{ أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(١)أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ(٢)وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ(٣)تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ(٤)فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ(٥) }.

وهكذا يثبت القرآن الكريم هذه الأحداث التاريخية المتفاوتة والممتدة من مبعث سيدنا عيسى عليه السلام وحتى الولادة المباركة لسيدنا محمد ρ.

جـ- إن الرسول ρ سيدخل مكة منتصراً، وأن الله سيظهر دينه كله في آفاق الأرض، وأن الدين سيكتمل وينتشر[2].. وهذا ما نجده مشخصاً بجلاء في الآية المباركة {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}، (النور:٥٥).. أي أن الله تعالى وعد بأمر لا يخلف وهو أنه يمكن الأمة لتستخلف الأرض وما فيها من أمم وقرى وينقلهم من الخوف والذل إلى الأمن والعز بالنصر، ولكن لمن؟ للذي يطبق شروط النصر وإقامة الدين بكل حيثياته التي ذكرنا، ثم قال ومن كفر أي لم يطبق ذلك فإن النتيجة ستكون الهزيمة لكل فاسق أدار ظهره لأوامر ربه. وقوله تعالى كما استخلف الذين من قبلهم مستمرة إلى يوم القيامة فلا يظنن أحد أن الآية تقتصر على من سبقنا من الأمم حسب، بل أن الأمر يتعدى إلى كونه قانوناً آخر يتعلق بالأجيال المتلاحقة من هذه الأمة. وكأن الله تعالى يقول لنا قد تعهدت لكم بالنصر وتركت لكم مفتاح ذلك، فإن طبقتم الشرع جاءكم النصر ولو بتغيير النواميس الكونية، وإن أبيتم ذلك فلا تلومن إلا أنفسكم.

---

(١)الرحيق المختوم للمباركفوري, ص ٢٤-٢٥ بتصرف.
(٢) انظر كتابنا (القوانين القرآنية للحضارات)، ففيه تفاصيل واسعة ومهمة في هذا الموضوع.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

لندخل في تفاصيل تفسير هذا القانون القرآني المهم في هذه الآية الكريمة التي تحمل البشارات لهذه الأمة :

١. **مناهل العرفان: (ج ٢ /ص (٢٧١-٢٧٢)**

المثال الخامس تنبؤ القران بأن المستقبل السعيد ينتظر المسلمين في وقت لم تكن عوامل هذا المستقبل السعيد مواتية ثم إذا تأويل هذا النبأ يأتي على نحو ما أخبر القرآن في أقصر ما يكون من الزمان أجل إننا لنقرأ في سورة الصافات المكية {وإن جندنا لهم الغالبون }، وفي سورة غافر المكية أيضا {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد}، وكذلك نقرأ في سورة النور المدنية {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا }، على حين أن سجلات التاريخ لا تزال تحفظ بين طياتها ما يشيب الوليد من ألوان الاضطهاد والأذى الذي أصاب الرسول ρ وأتباعه في مكة والمدينة على عهد نزول هذه الوعود المؤكدة الكريمة حتى لقد كان أكبر أماني المسلمين بعد هجرتهم وتنفسهم الصعداء قليلا أن يسلم لهم دينهم ويعيشوا آمنين في مهاجرهم كما يدل على ذلك ما صححه الحاكم عن أبي بن كعب قال لما قدم رسول الله ρوأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله فنزلت الآية وكذلك روى ابن أبي حاتم. وقال البراء نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد أي قوله تعالى {وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات..}، هكذا كان حال الصحابة أيام أن وعدهم الله ما وعد وما أعجل تحقق هذا الوعد الإلهي رغم هذه الحال المنافية في العادة لما وعد فدالت الدولة لهم واستخلفهم في أقطار الأرض وأورثهم ملك كسرى وقيصر ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وأبدلهم من بعد خوفهم أمنا، يا لها نبوءة

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تأبى عادة أن يتحدث بها إلا من يملك تحقيقها ومن يخرق إن شاء عادات الكون ونواميسه من أجلها {إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم}، { ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز}.

٢. **التبيان في إعراب القرآن (ج ٢ /ص ١٥٩**

قوله تعالى { ..كما استخلف..}، نعت لمدص محذوف أي استخلافاً كما استخلف قوله تعالى يعبدونني في موضع الحال من ضمير الفاعل في { ..ليستخلفنهم ..}، أو من الضمير في ليبدلنهم لا يشركون يجوز أن يكون حالا بدلا من الحال الأولى وأن يكون حالا من الفاعل في يعبدونني أي يعبدونني موحدين.

٣. **تفسير البيضاوي (ج ٤ /ص ١٩٧- ١٩٨)**

وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات خطاب للرسول ρ وللأمة أوله ولمن معه ومن للبيان { ..ليستخلفنهم في الأرض ..}، أي ليجعلنهم خلفاء متصرفي في الأرض تصرف الملوك في مماليكهم وهو جواب قسم مضمر تقديره وعدهم الله وأقسم ليستخلفنهم أو الوعد في تحقيقه منزل منزلة القسم كما استخلف الذين من قبلهم يعني بني إسرائيل استخلفهم في مصر والشام ببعد الجبابرة وقرأ أبو بكر بضم التاء وكسر اللام وإذا ابتدأ ضم الألف والباقون بفتحهما وإذا ابتدءوا كسروا الألف وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وهو الإسلام بالتقوية والتثبيت { ..وليبدلنهم من بعد خوفهم.. }، العداد وقرأ ابن كثير وأبو بكر بالتخفيف { ..أمنا ..}.. وكان رسول الله ρ وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ثم هاجروا إلى المدينة وكان يصبحون في السلاح ويمسون فيه حتى أنجز الله وعده فأظهرهم على العرب كلهم وفتح لهم بلاد الشرق والغرب، وفيه دليل على صحة النبوة للإخبار عن الغيب على ما هو به وخلافه الخلفاء الراشدين إذ لم يجتمع الوعود والوعود عليه لغيرهم بالإجماع، وقيل الخوف من العذاب والأمن منه في الآخرة، يعبدونني حال من الذين لتقيد الوعد بالثبات

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

علي التوحيد أو استئناف ببيان المقتضي للاستخلاف والأمن، لا يشركون بي شيئا حال من الواو أي يعبدونني غير مشركين من كفر ومن ارتد أو كفر هذه النعمة بعد ذلك بعد الوعد أو حصول الخلافة فأولئك هم الفاسقون الكاملون في فسقهم حيث ارتدوا بعد وضوح مصل هذه الآيات، أو كفروا تلك النعمة العظيمة. { وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول..}، في سائر ما أمركم به ولا يبعد عطف ذلك على {.. أطيعوا الله.. }، فإن الفاصل وعد على المأمور به فيكون تكرير الأمر بطاعة الرسول ρ لتأكيد وتعليق الرحمة بها أو بالمندرجة هي فيه بقوله لعلكم ترحمون كما علق به الهدى

٤. **<u>تفسير القرطبي (ج ١٢ / ص ٢٩٩ - ٣٠٠)</u>**

{ ..ليستخلفنهم في الأرض..}، وقوله { ..كما استخلف الذين من قبلهم..}، يعني بني إسرائيل وإذ أهلك الله الجبابرة بمصر وأورثهم أرضهم وديارهم فقال وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها، وهكذا كان الصحابة مستضعفين خائفين ثم غن الله تعالى أمنهم ومكنهم وملكهم فصح أن الآية عامة لأمة محمد ρ غير مخصوصة، إذ التخصيص لا يكون إلا بخبر ممن يجب له التسليم ومن الأصل المعلوم التمسك بالعموم. وجاء في معنى تبديل خوفهم بالأمن أن رسول الله ρ لما قال أصحابه أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فقال عليه السلام **(لا تلبثون إلا قليلا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيا ليس عليه حديدة)**، وقال ρ **(والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون)**،أخرجه مسلم في صحيحه، فكان كما أخبر ρ فالآية معجزة النبوة لأنها إخبار عما سيكون.. فكان قوله تعالى { ..ليستخلفنهم في الأرض..}، فيه قولان أحدهما يعني أرض مكة لأن المهاجرين سألوا الله تعالى ذلك فوعدوا كما وعدت بنو

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

إسرائيل، قال معناه النقاش، الثاني بلاد العرب والعجم قال ابن العربي وهو الصحيح، لأن أرض مكة محرمة على المهاجرين كما قال النبي ρ، لكن البائس سعيد بن خولة يرثي له رسول الله ρ أن مات بمكة وقال في الصحيح أيضاً **(يمكث المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثا)** واللام في ليستخلفنهم جواب قسم مضمر لأن الوعد قول مجازها، قال الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات والله ليستخلفنهم في الأرض فيجعلهم ملوكا وسكانها كما استخلف الذين من قبلهم يعني بني إسرائيل أهل الجبابرة بمصر والشأم وأورثهم أرضهم وديارهم.. وقراءة العامة كما استخلف بفتح التاء واللام لقوله وعد وقوله ليستخلفنهم، وقرأ عيسى بن عمرو وأبو بكر والمفضل عن عاصم استخلف بضم التاء وكسر اللام على الفعل المجهول { ..وليمكنن دينهم الذي ارتضى لهم..}، وهو الإسلام كما قال تعالى { ..ورضيت لكم الإسلام دينا }.. وروى سليم بن عامر عن المقداد ابن الأسود قال سمعت رسول الله ρ يقول (**ما على ظهر الأرض بيت حجر ولا مدر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذل ذليل أما بعزهم فيجعلهم من أهلها وأما بذلهم فيدينون بها)**، ذكره الماوردي حجة لمن قال إن المراد بالأرض بلاد العرب والعجم وهو القول الثاني على ما تقدم آنفا وليبدلنهم.. قرأ ابن محيصن وابن كثير ويعقوب وأبو بكر بالتخفيف من أبدل وهي قراءة الحسن واختيار أبي حاتم الباقون بالتشديد من بدل وهي اختيار أبي عبيد لأنها أكثر ما في القرآن الكريم.

٥. **<u>تفسير ابن كثير (ج ٣ / ص ٢٠٢ - ٢٠٣)</u>**

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة كقوله تعالى { إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين}، وقال { إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد}، وقال { وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم..} ، وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة ولهذا قال تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر. قال الأعمش سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى { ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ..}، فقال الزبور التوراة والإنجيل والقرآن، وقال مجاهد الزبور الكتاب، وقال ابن عباس والشعبي والحسن وقتادة وغير واحد الزبور الذي أنزل على داود والذكر التوراة، وعن ابن عباس الزبور القرآن، وقال سعيد بن جبير الذكر الذي في السماء، وقال مجاهد الزبور الكتب بعد الذكر والذكر أم الكتاب عند الله، واختار ذلك ابن جرير رحمه الله، وكذا قال زيد بن أسلم هو الكتاب الأول، وقال الثوري هو اللوح المحفوظ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الزبور الكتب التي أنزلت على الأنبياء والذكر أم الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أخبر الله سبحانه وتعالى في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السماوات والأرض أن يورث أمة محمد ρ الأرض ويدخلهم الجنة وهم الصالحون، وقال مجاهد عن ابن عباس { إن الأرض يرثها عبادي الصالحون}، قال أرض الجنة وكذا قال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وقتادة والسدي وأبو صالح والربيع بن أنس والثوري، وقال أبو الدرداء نحن الصالحون، وقال السدي هم المؤمنون وقوله { إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين}، أي إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ρ لبلاغاً لنفعه وكفاية لقوم عابدين وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم.. وقوله { ما أرسلناك إلا رحمة للعالمين }، يخبر تعالى أن الله جعل محمدا ρ رحمة للعالمين أي أرسله رحمة لهم كلهم فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة ومن ردها وجحدها خسر الدنيا

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

والآخرة كما قال تعالى { ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار }، وقال تعالى في صفة القرآن { قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد }، وقال مسلم في صحيحه ٢٥٩٩ عن أبي هريرة قال قيل يا رسول الله ادع على المشركين قال ρ (**إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة**)، انفرد بإخراجه مسلم، وفي الحديث الآخر (**إنما أنا رحمة مهداة**)، رواه عبد الله بن أبي عرابة وغيره عن وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعا، وكذا قال البخاري، قال الحافظ بن عساكر وقد رواه مالك بن سعير بن الخمس عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعا ثم ساقه من طريق أبي بكر ابن المقرئ وأبي أحمد الحاكم كلاهما عن بكر بن محمد بن إبراهيم الصوفي.. وعن ابن عمر قال قال رسول الله ρ (**إن الله بعثني رحمة مهداة بعثت برفع قوم وخفض آخرين**). قال أبو القاسم الطبراني عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال قال أبو جهل حين قدم مكة منصرفه عن خمره يامعشر قريش إن محمدا نزل يثرب وأرسل طلائعه وإنما يريد أن يصيب منكم شيئا فاحذروا أن تمروا طريقه وتقاربوه فإنه كالأسد الضاري إنه حنق عليكم لأنكم نفيتموه نفي القردان عن المناسم والله إن له لسحرة ما رأيته قط ولا أحدا من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين وإنكم قد عرفتم عداوة ابني قيلة يعني الأوس والخزرج فهو عدو استعان بعدو، فقال له مطعم بن عدي يا أبا الحكم والله ما رأيت أحدا أصدق لسانا ولا أصدق موعدا من أخيكم الذي طردتم وإذ فعلتم الذي فعلتم فكونوا أكف الناس عنه، قال أبو سفيان بن الحارث كونوا أشد ما كنتم عليه إن ابني قيلة إن ظفروا بكم لم يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة وإن أطعتموني ألجأتموهم خير كنانة أو تخرجوا محمدا من بين ظهرانيهم فيكون وحيدا مطرودا وأما ابنا قيلة، فوالله ما هما وأهل دهلك في

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المذلة إلا سواء وأكفيكم حدهم وقال سأمنح جانبا مني غليظا على ما كان من قرب وبعد رجال الخزرجية أهل ذل إذا ما كان هزل بعد جد، فبلغ ذلك رسول الله ρ فقال (**والذي نفسي بيده لأقتلنهم ولأصلبنهم ولأهدينهم وهم كارهون إني رحمة بعثني الله ولا يتوفاني حتى يظهر الله دينه لي خمسة أسماء أنا محمد وأحمد وأنا الماحي الذي يمحوا الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قومي وأنا العاقب)**. قال أحمد بن صالح أرجو أن يكون الحديث صحيحا، وقال الإمام أحمد عن عمر بن أبي قرة الكندي قال كان حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ρ فجاء حذيفة إلى سلمان فقال سلمان يا حذيفة إن رسول الله ρ خطب فقال (**أيما رجل سببته في غضبي أو لعنته لعنة فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما تغضبون وإنما بعثني الله رحمة للعالمين فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة)**، ورواه أبو داود ٤٦٥٩ عن أحمد بن يونس عن زائدة فإن قيل فأي رحمة حصلت لمن كفر به فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله { وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}، قال من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف. وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث المسعودي عن أبي سعد وهو سعيد بن المرزبان البقال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكره بنحوه والله أعلم. وقد رواه أبو القاسم الطبراني ١٢١٢٣٥٨ عن عبدان بن أحمد عن عيسى بن يونس الرملي عن أيوب بن سويد عن المسعودي عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس { وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين }، قال من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة ومن لم يتبعه عوفي مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف.

إن هذه الآية العظيمة لوحدها تنبأ عن الأحداث بعد بعثة النبي

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ρ إلى قيام الساعة، إذ أن الله جازى بني إسرائيل عندما كانوا مؤمنين على إيمانهم وصبرهم بأن أعطاهم أرض فلسطين وأورثهم إياها وعندما كفروا أرسل عليهم من يسومهم سوء العذاب وانتزع منهم شرف حمل الرسالة وأعطاها لبني إسماعيل، جد رسول الله ρ، وهم العرب فوعدهم الله في هذه الآية أن يستخلفهم الأرض فيملكوها من مشارقها إلى مغاربها ما أن تمسكوا بدين الله وكتابه وسنة رسوله ρ، وهذا ما حصل فعلاً ففي سنين قليلة ملك المسلمون العالم القديم كله من شرقه إلى غربه والعالم القديم هو القارات الرئيسية الثلاث ((أوربا وآسيا وأفريقيا))، ثم بعد ذلك عندما ترك المسلمون كتاب الله وراء ظهورهم نُزِعَ عنهم هذا الشرف وتمكن الأعداء منهم فاحتلوا أرضهم وأذلوهم وسلبوا ديارهم وشرفهم. إذن، ما من حل لكل ما نمر به إلا بالعودة إلى الله لأن الوعد في الآية الكريمة مستمر غير منقطع لقوله تعالى { ... يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً...} أي ما أن قاموا بهذا العمل وأخلصوا به فإن الوعد سيتحقق وهل من وعد أصدق من وعد الله؟، فهل نحن عائدون إلى الله لنحضى بنصره وإنجاز وعده؟، أم إننا استحببنا العمى على الهدى وعبدنا أهواءنا وملذاتنا وشهوتنا وتركنا الله وكتابه وسنة رسوله وراء ظهورنا وبذلك فقد أخلينا بالشرط الذي أشترطه الله علينا فكيف نرجو منه سبحانه أن يفي بوعده لنا ونحن من أخلف العهد معه؟.

ويعضد هذا الوعد ما جاء في آيات عديدية أخرى تأتي في نفس السياق، منها قول الله تعالى:{ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)} ، (التوبة).. ويقول أيضاً {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً} ، (الفتح:٢٨)... ويؤكدها سبحانه ثالثة {هُوَ

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ }، (الصف:٩).. وكلمة (ليظهره) اللام سببية، أي ما جاء الإسلام إلا ليظهر ويغلب، وكلمة يظهره أي يجعله ظاهراً فوق الآخرين. أما كلمة الدين فتعني اصطلاحاً القانون، أي ليجعل دين وقانون الإسلام ظاهراً على كل القوانين الأخرى، والدليل من الكتاب قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام {.... مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّه...} ، (يوسف: من الآية٧٦)، فالدين هنا يعني قانون الملك.

ويؤكد هذا الوعد قوله تعالى { وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}، (الأنبياء:١٠٥).. {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)} ، الصافات.

كما ونجد ذلك واضحاً في أحاديث ومواقف كثيرة للنبي ρ منها ما كان إبان حفر الخندق وما كانت عليه الحالة النفسية للصحابة الأجلاء، وكيف وعدهم النبي ρ بملك كسر وقيصر، وقد حصل لاحقاً... وفي الحديث نجد تأكيداً وتفصيلاً لهذا القانون المهم، إذ ينقل الإمام أحمد في مسنده (مسند الكوفيين ١٧٦٨٠) عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ρ وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلًا يَكُفُّ حَدِيثُهُ فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ فَقَالَ يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ρ فِي الْأُمَرَاءِ فَقَالَ حُذَيْفَةُ أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ فَقَالَ حُذَيْفَةُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ρ (**تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ**

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ)، ثُمَّ سَكَتَ... وقد حصلت جميع تلك المراحل باستثناء الأخيرة، فالنبوة، ثم خلافة على منهجها في عهد الخلفاء الراشدين، ثم ملكاً عاضاً أي كالثمرة التي عضت فهي ناقصة كما حصل في عهد الخلافة الأموية والعباسية والعثمانية فهي كانت ترمز للدولة الإسلامية التي تطبق الشرع لكن بخلل جوهري وهو الخلافة الوراثية التي يرفضها الشرع الحنيف الآمر بمبدأ الشورى، ثم جاء الملك الجبري وهو ما تبع سقوط الدولة العثمانية من نظام ملكي وجمهوري دكتاتوري جبري قمعي في الدول الإسلامية وهو ما شهدناه ونشهده اليوم، فلم يبق إذن سوى العودة إلى الخلافة على منهج النبوة وهو الذي سيكون بإذنه تعالى.

أخرج الطبراني وأبو نعيم في الحلية وكذا في كنز العمال (١/ ٧٧) والحاكم عن أبي ثعلبة الخشني قال: قدم رسول الله ρ من غزاة له، فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين وكان يعجبه إذا قدم من سفر أن يدخل المسجد فيصلي فيه ركعتين يثّني بفاطمة ثم أزواجه. فقدم من سفره مرة فأتى فاطمة رضي الله عنها، فبدأ بها قبل أزواجه، فاستقبلته على باب البيت فجعلت تقبل وجهه وعينيه وتبكي، فقال لها رسول الله ρ : **(ما يبكيك ؟)**، قالت أراك يا رسول الله، قد شحب لونك، واخلولقت ثيابك، فقال لها رسول الله ρ (**يا فاطمة لا تبك فإن الله بعث أباك بالحق بأمر لا يبقي على ظهر الأرض بيت وبر ولا مدر ولا شعر إلا أدخله الله به عزاً أو ذلاً حتى يبلغ حيث يبلغ الليل)**.. وكذا ما ذكرناه في موضع سابق من حديث المقداد ابن الأسود في قوله ρ **(ما على ظهر الأرض بيت حجر ولا مدر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذل ذليل أما بعزهم فيجعلهم من أهلها وأما بذلهم فيدينون بها)**.

ويعضده الحديث الذي أخرجه الأمام احمد في مسند الشلميين

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عن تميم الداري (١٦٣٤٤) قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ρ يَقُولُ (**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ**)، وَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ يَقُولُ قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجِزْيَةُ...

د- تحدى القرآن الكريم ومنذ بداية الدعوة أن يكون لأبي لهب أمل في الهداية, بل أعطاه استحقاقه مع زوجته وهو الخلود في النار. وقد كانا يستطيعان إثبات عكس ذلك ولو من باب الجدال والتحدي فقط, وليثبتا للناس بطلان هذا الادعاء , ولكن أي شيء من هذا القبيل لم يحدث وصدق الله ورسوله : { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(٢) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥) }, (المسد).

الدكتور مليز, هذا القس الذي أراد قراءة القرآن كي يؤلف كتاباً يستهزئ به, فإذا به لا يصدق ما يقرأ فتعلق قلبه بهذا الكتاب, فأعلن إسلامه, وألف كتباً عن عظمة هذا الكتاب وهذا الدين ونشرها عبر الشبكة العالمية الإنترنت. كانت من بين الأمور التي جلبت انتباهه هذا الموضوع الذي يقول عنه: (عجبت لأمر أبي لهب هذا وغباءه, كان بإمكانه أن ينسف الإسلام في مهده, فيعلن إسلامه ولو كذباً ليبين للناس كذب محمد – حاشاه ρ- ولكنه لم يفعل رغم أن الآية نزلت في بداية الدعوة الإسلامية ومات هو بعد موت رسول الله ρ).

إلى اللقاء مع الكتاب القادم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الملاحق

الملحق (١) : قصة نوح عليه السلام

الملحق (٢): قصة لوط عليه السلام

الملحق (٣): قصة موسى عليه السلام

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الملحق (ا)

قصة نوح عليه السلام

قصة نوح عليه السلام[1]

هو: نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ، وهو إدريس، بن يرد بن مهلاييل بن قينن ابن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام، كان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة، فيما ذكره ابن جرير وغيره، وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة، وكان بينهما عشرة قرون، كما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان في صحيحه حدثنا محمد بن عمر بن يوسف، حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه، حدثنا أبو توبة، حدثنا معاوية بن سلام، عن أخيه زيد بن سلام، سمعت أبا سلام سمعت أبا أمامة، أن رجلا قال: يا رسول الله، أنبي كان آدم؟ قال: **(نعم مكلم)**، قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: **(عشرة قرون)**.

قلت: وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. فإن كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس فبينهما ألف سنة لا محالة، لكن لا ينفي أن يكون أكثر، باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام، إذ قد يكون بينهما قرون أخرى متأخرة لم يكونوا على الإسلام، لكن حديث أبي أمامة يدل على الحصر في عشرة قرون، وزادنا ابن عباس: أنهم كلهم كانوا على الإسلام، وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب أن قابيل وبنيه عبدوا النار، والله أعلم.

وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما في قوله تعالى: { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً

---

(1) موسوعة الدكتور طارق السويدان، قصص الأنبياء، قرص مدمج.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بَصِيراً}، (الاسراء:١٧)، وقوله: { ثم أنشأنا من بعدهم قرونًا آخرين }، وقال تعالى: { وقرونا بين ذلك كثيرا} ، وقال: { وكم أهلكنا قبلهم من قرن}، وكقوله عليه السلام: **(خير القرون قرني)** الحديث.
فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة. فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين، والله أعلم.
وبالجملة: فنوح عليه السلام إنما بعثه الله تعالى لما عبدت الأصنام والطواغيت، وشرع الناس في الضلالة والكفر، فبعثه الله رحمة للعباد، فكان أول رسول بُعث إلى أهل الأرض كما يقول له أهل الموقف يوم القيامة، وكان قومه يقال لهم: بنو راسب، فيما ذكره ابن جبير وغيره.
واختلفوا في مقدار سنه يوم بعث، فقيل: كان ابن خمسين سنة، وقيل: ابن ثلاثمائة وخمسين سنة، وقيل: ابن أربعمائة وثمانين سنة، حكاها ابن جرير، وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس.
وقد ذكر الله قصته، وما كان من قومه، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة، في غير ما موضع من كتابه العزيز، ففي الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت وأنزل فيه سورة كاملة، فقال في سورة الأعراف: { لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ
(٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ (٦٤)} .
وقال تعالى في سورة يونس: { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وَلا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) }.

وقال تعالى في سورة هود: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)}.

وأما مضمون ما جرى له مع قومه، مأخوذا من الكتاب والسنة والآثار، فقد قدمنا عن ابن عباس أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام رواه البخارى. وذكرنا أن المراد بالقرن الجيل، أو المدة، على ما سلف. ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام، وكان سبب ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: { وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودًا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق ونسرا} . قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا، وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت.

قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التى كانت في قوم نوح في العرب بعد، وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن إسحاق.

وقال ابن جرير في تفسيره: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن موسى، عن محمد بن قيس، قال: كانوا قوما صالحين

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا، قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر فعبدوهم. وروى ابن أبي حاتم، عن عروة بن الزبير، أنه قال: ود ويغوث ويعوق وسواع ونسر أولاد آدم، وكان ود أكبرهم وأبرهم به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا يعقوب، عن أبي المطهر، قال: ذكروا عند أبي جعفر، هو الباقر، وهو قائم يصلى بزيد ابن المهلب، قال: فلما انفتل من صلاته، قال: ذكرتم يزيد بن المهلب، أما إنه قتل في أول أرض عبد فيها غير الله. قال: ذكر ودًا رجلاً صالحًا وكان محببًا في قومه، فلما مات عكفوا حول قبره في أرض بابل، وجزعوا عليه، فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه في صورة إنسان، ثم قال: إني أرى جزعكم على هذا الرجل، فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه؟ قالوا: نعم، فصور لهم مثله، قال: ووضعوه في ناديهم وجعلو يذكرونه، فلما رأى ما بهم من ذكره، قال: هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالاً مثله ليكون له في بيته فتذكرونه؟ قالوا: نعم، قال: فمثل لكل أهل بيت تمثالاً مثله، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به، قال: وأدرك أبناؤهم، فجعلوا يرون ما يصنعون به، قال: وتناسلوا ودرس أثر ذكرهم إياه، حتى اتخذوه إلهًا يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم، فكان أول ما عبد غير الله ودًا، الصنم الذى سموه ودًا.

ومقتضى هذا السياق: أن كل صنم من هذه عبده طائفة من الناس، وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة، ليكون أثبت لهم، ثم عبدت بعد ذلك من دون الله عز وجل، ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جدًا.

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ρ : أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التى رأينها بأرض الحبشة، يقال لها: مارية، فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها، قال: **(أولئك إذا مات فيهم**

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا، ثم صوروا فيه تلك الصورة، أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل).

أن الفساد لما انتشر في الأرض وعم البلاء بعبادة الأصنام فيها، بعث الله عبده ورسوله نوحًا عليه السلام، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي حيان، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة، عن النبي ρ في حديث الشفاعة، قال: **(فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول: ربي قد غضب غضبًا شديدًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبدًا شكورًا، ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما بلغنا، ألا تشفع لنا إلى ربك عز وجل؟ فيقول: ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، نفسي نفسي)**، وذكر تمام الحديث بطوله كما أورده البخاري في قصة نوح.

فلما بعث الله نوحًا عليه السلام دعاهم إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن لا يعبدوا معه صنما ولا تمثالاً ولا طاغوتًا، وأن يعترفوا بوحدانيته، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته، كما قال تعالى: { وجعلنا ذريته هم الباقين}، وقال فيه وفي إبراهيم: { وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب} أي كل نبي من بعد نوح فمن ذريته، وكذلك إبراهيم قال الله تعالى: { ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}، وقال تعالى:{ واسئل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون}.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقال تعالى : { وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون}، ولهذا قال نوح لقومه: { اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} ، وقال: { ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم} ، وقال: { يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون} ، وقال تعالى في سورة نوح: { قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً(١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (١٢) مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (١٤)} .. فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار والسر والإجهار، بالترغيب تارة والترهيب أخرى، وكل هذا فلم ينجح فيهم، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان، ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان، وتنقصوه، وتنقصوا من آمن به، وتوعدوهم بالرجم والاخراج ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم: { قال الملأ من قومه}، أي السادة الكبراء منهم، { إنا لنراك في ضلال مبين قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين} ، أي لست كما تزعمون من إني ضال، بل على الهدى المستقيم، {رسول من رب العالمين} ، أي الذى يقول للشيء كن فيكون، { أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون}، وهذا شأن الرسول أن يكون بليغًا أي فصيحًا ناصحًا أعلم الناس بالله عز وجل، وقالوا له فيما قالوا: { ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين}، تعجبوا أن يكون بشرًا رسولاً وتنقصوا بمن اتبعه ورأوهم أراذلهم.
وقد قيل: أنهم كانوا من أقياد الناس وهم ضعفاؤهم، كما قال هرقل، وهم أتباع الرسل، وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق، وقولهم: { بادي الرأي}، أي بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية، وهذا الذى رموهم به هو عين ما يمدحون بسببه، رضى الله عنهم، فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر، بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر، ولهذا قال رسول الله ρ مادحا للصديق: (**ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة، غير أبي بكر فإنه لم يتلعثم**)، ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة أيضًا سريعة من غير نظر ولا روية، لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة، رضى الله عنهم، ولهذا قال رسول الله ρ لما أراد أن يكتب الكتاب الذى أراد أن ينص فيه على خلافته، فتركه وقال: **(يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر رضى الله عنه).**
وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به: {وما نرى لكم علينا من فضل }، أي لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزية علينا { فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ }، (هود:٢٧)، { قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون}، وهذا تلطف في الخطاب معهم، وترفق بهم في الدعوة إلى الحق، كما قال تعالى: {فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى}.
وقال تعالى: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن}، وهذا منه يقول لهم: {أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده} أي النبوة والرسالة، { فعميت عليكم} ، أي فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها، { أنلزمكموها} أي

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

انغصبكم بها ونجبركم عليها { وأنتم لها كارهون}، أي ليس لى فيكم حيلة والحالة هذه {ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجرى إلا على الله } أي لست أريد منكم أجرة على إبلاغي إياكم ما ينفعكم في دنياكم وأخراكم إن أطلب ذلك إلا من الله الذى ثوابه خير لي وابقى مما تعطونني أنتم، وقوله: {وما أنا بطارد الذين آمنوا أنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون}، كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه، ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك، فأبى عليهم ذلك، وقال: { إنهم ملاقوا ربهم} أي فأخاف إن طردتهم أن يشكوني إلى الله عز وجل، ولهذا قال: {ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون} ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله ρ : أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين كعمار وصهيب وبلال وخباب وأشباههم نهاه الله عن ذلك، كما بيناه في سورتى الأنعام والكهف: {ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك} ، أي بل أنا عبد رسول لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمني به، ولا أقدر إلا على ما أقدرني عليه، ولا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله {ولا أقول للذين تزدري أعينكم} يعني من أتباعه { لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين} ، أي لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة، الله أعلم بهم، وسيجازيهم على ما في نفوسهم، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، كما قالوا في الموضع الآخر: { أنؤمن لك واتبعك الأرذلون(١١١) قال وما علمي بما كانوا يعملون(١١٢) إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون (١١٣) وما أنا بطارد المؤمني(١١٤)ن إن أنا إلا نذير مبين(١١٥)}.

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم، كما قال تعالى: {فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فأخذهم الطوفان وهم ظالمون}، أي ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم وكان كل ما انقرض جيل وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه أن لا يؤمن

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بنوح أبدا ما عاش، ودائمًا ما بقى، وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق، ولهذا قال: {ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا}، ولهذا قالوا: { قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (٣٢) قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين(٣٣)}، أي إنما يقدر على ذلك الله عز وجل، فإنه الذى لا يعجزه شىء، ولا يكترثه أمر، بل هو الذى يقول للشيء كن فيكون {ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون }، أي من يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته، هو الذى يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد، وهو العزيز الحكيم العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة {وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن}، تسلية له عما كان منهم إليه {فلا تبتئس بما كانوا يفعلون}، وهذه تعزية لنوح عليه السلام في قومه أنه لن يؤمن منهم إلامن قد آمن، أي لا يسوأنك ما جرى، فإن النصر قريب والنبأ عجيب {واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون}، وذلك أن نوحا عليه السلام لما يئس من صلاحهم وفلاحهم ورأى أنهم لا خير فيهم، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال، دعا عليهم دعوة غضب، فلبى الله دعوته، وأجاب طلبته.

قال الله تعالى: {ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون* ونجيناه وأهله من الكرب العظيم}، وقال تعالى: {ونوحًا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم}، وقال تعالى: {قال رب إن قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحًا ونجني ومن معى من المؤمنين}، وقال تعالى: {فدعا ربه إني مغلوب فانتصر}، وقال تعالى: {قال رب انصرني بما كذبون}، وقال تعالى: { مما خطيآتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا(٢٥)وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا(٢٦)}، فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك، وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها، ولا يكون بعدها مثلها، وقدم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمره، وحل بهم بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه، فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم، فإنه ليس الخبر كالمعاينة، ولهذا قال: { ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون(٣٧) ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه .. (٣٨)}، (هود). أي يستهزئون به استبعادًا لوقوع ما توعدهم به، قال: { إن تسخورا منا فانإ نسخر منكم كما تسخرون}، أي نحن الذين نسخر منكم، ونتعجب منكم، في استمراركم على كفركم وعنادكم، الذى يقتضى وقوع العذاب بكم، وحلوله عليكم { فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم}، وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ في الدنيا.

وهكذا في الآخرة فإنهم يجحدون أيضًا أن يكون جاءهم رسول، كما قال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ρ : **(يجىء نوح عليه السلام وأمته، فيقول الله عز وجل: هل بلغت؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته فتشهد أنه قد بلغ).** وهو قوله: { وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا} ، والوسط العدل.

فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق بأن الله قد بعث نوحًا بالحق، وأنزل عليه الحق، وأمره به، وأنه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها، ولم يدع شيئًا مما ينفعهم في دينهم إلا وقد أمرهم به، ولا شيئًا مما قد يضرهم، إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه، وهكذا شأن جميع الرسل، حتى أنه حذر قومه المسيح الدجال، وإن كان لا يتوقع خروجه في زمانهم حذرًا عليهم وشفقة ورحمة بهم.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

كما قال البخاري: حدثنا عبدان، حدثنا عبد الله، عن يونس، عن الزهرى، قال سالم: قال ابن عمر: قام رسول الله ρ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال، فقال: **(إني لأنذركموه، وما من نبي إلا وقد أنذره قومه، لقد أنذره نوح قومه، ولكني أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه: تعلمون أنه أعور وأن الله ليس بأعور).**

وهذا الحديث في الصحيحين أيضًا من حديث شيبان بن عبد الرحمن، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي ρ قال: **(ألا أحدثكم عن الدجال حديثا ما حدث به نبي قومه إنه أعور، وإنه يجىء معه بمثال الجنة والنار، والتى يقول عليها الجنة هي النار، وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه)**، لفظ البخارى.

وقد قال بعض علماء السلف: لما استجاب الله له أمره أن يغرس شجرًا ليعمل منه السفينة، فغرسه وانتظره مائة سنة، ثم نجره في مائة أخرى، وقيل: في أربعين سنة، فالله أعلم. قال محمد بن إسحاق عن الثوري: وكان من خشب الساج، وقيل: من الصنوبر، وهو نص التوراة. قال الثوري: وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعًا، وعرضها خمسين ذراعًا، وأن يطلي ظاهرها وباطنها بالقار، وأن يجعل لها جؤجؤًا أزور يشق الماء، وقال قتادة: كان طولها ثلثمائة ذراع في عرض خمسين ذراعا، وهذا الذي في التوراة على ما رأيته.

وقال الحسن البصري: ستمائة في عرض ثلثمائة ذراع. وعن ابن عباس: ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة ذراع، وقيل: كان طولها ألفي ذراع وعرضها مائة ذراع، قالوا كلهم: وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعا، وكانت ثلاث طبقات، كل واحدة عشر أذرع، فالسفلى للدواب والوحوش، والوسطى للناس، والعليا للطيور، وكان بابها في عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها، قال الله تعالى في سورة المؤمنون: { قال رب انصرني بما كذبون(٢٦) فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ... (٢٧)}، أي بأمرنا لك، وبمرأى منا

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

لصنعتك لها، ومشاهدتنا لذلك لنرشدك إلى الصواب في صنعتها { فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون}، فتقدم إليه بأمره العظيم العالي، أنه إذا جاء أمره وحل بأسه أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات، وسائر ما فيه روح، ومن المأكولات وغيرها لبقاء نسلها، وأن يحمل معه أهله، أي أهل بيته { إلا من سبق عليه القول منهم}، أي إلا من كان كافرًا فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد ووجب عليه حلول البأس الذي لا يرد، وأمر أنه لا يراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعاينه من العذاب العظيم الذي قد حتمه عليهم الفعال لما يريد، كما قدمنا بيانه قبل.

والمراد بالتنور عند الجمهور: وجه الأرض، أي نبعت الأرض من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير التي هي محال النار. وعن ابن عباس: التنور عين في الهند، وعن الشعبي بالكوفة، وعن قتادة بالجزيرة. وقال علي بن أبي طالب: المراد بالتنور: فلق الصبح، وتنوير الفجر، أي إشراقه وضياؤه. أي عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين اثنين. وهذا قول غريب.

وقوله تعالى: { حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل}، هذا أمر بأن عند حلول النقمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، وفي كتاب أهل الكتاب أنه أمر أن يحمل من كل ما يؤكل سبعة أزواج، ومما لا يؤكل زوجين ذكرا وأنثى، وهذا مغاير لمفهوم قوله تعالى في كتابنا الحق: { اثنين}، إن جعلنا ذلك مفعولاً به، وأما إن جعلناه توكيدًا لزوجين والمفعول به محذوف فلا ينافي، والله أعلم.

وذكر بعضهم ويروى عن ابن عباس: أن أول ما دخل من الطيور الدرة، وآخر ما دخل من الحيوانات الحمار، ودخل إبليس متعلقًا بذنب الحمار. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

صالح، حدثني الليث، حدثني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن رسول الله ρ قال: **(لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين، قال أصحابه: وكيف نطمئن، أو كيف تطمئن المواشى ومعنا الأسد، فسلط الله عليه الحمى، فكانت أول حمى نزلت في الأرض، ثم شكوا الفأرة، فقالوا: الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا، فأوحى الله إلى الأسد فعطس، فخرجت الهرة منه، فتخبأت الفأرة منها)**، هذا مرسل. وقوله: { وأهلك إلا من سبق عليه القول}، أي من استجيبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر، فكان منهم ابنه يام الذى غرق، كما سيأتي بيانه، { ومن آمن} أي واحمل فيها من آمن بك من أمتك، قال الله تعالى: { وما آمن معه إلا قليل}، هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم، ودعوتهم الأكيدة ليلاً ونهارًا بضروب المقال وفنون التلطفات والتهديد والوعيد تارة والترغيب والوعد أخرى.

وقد اختلف العلماء في عدة من كان معه في السفينة: فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفسًا معهم نساؤهم. وعن كعب الأحبار كانوا اثنين وسبعين نفسًا، وقيل: كانوا عشرة، وقيل: إنما كانوا نوحًا وبنيه الثلاثة، وكنائنه الأربع بامرأة يام الذى انخزل وانعزل وتسلل عن طريق النجاة، فما عدل إذ عدل، وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية، بل هى نص في أنه قد ركب معه غير أهله طائفة ممن آمن به، كما قال: { ونجني ومن معى من المؤمنين}، وقيل: كانوا سبعة، وأما امرأة نوح وهي أم أولاده كلهم، وهم: حام، وسام، ويافث، ويام، وتسميه أهل الكتاب كعنان وهو الذي قد غرق وعابر، وقد ماتت قبل الطوفان، قيل: إنها غرقت مع من غرق، وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها، وعند أهل الكتاب: أنها كانت في السفينة، فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك، أو أنها أنظرت ليوم القيامة، والظاهر الأول لقوله: { لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا}.

قال الله تعالى في سورة المؤمنون: { فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين(٢٨) وقل رب

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أنزلني منزلاً مباركًا وأنت خير المنزلين(٢٩)}، أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة، فنجاه بها، وفتح بينه وبين قومه، وأقر عينه ممن خالفه وكذبه، كما قال تعالى: { الذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون}، وهكذا يؤمر بالدعاء في ابتداء الأمور أن يكون على الخير والبركة، وأن تكون عاقبتها محمودة، كما قال تعالى لرسوله ρ حين هاجر: { وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا}، وقد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية: { وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم}، أي على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاؤه { إن ربي لغفور رحيم}، أي وذو عقاب أليم مع كونه غفورًا رحيمًا، لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره.

قال الله تعالى: { وهى تجري بهم في موج كالجبال}، وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطرًا لم تعهده الأرض قبله، ولا تمطره بعده، كان كأفواه القرب، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها، كما قال تعالى في سورة القمر: { فدعا ربه إني مغلوب فانتصر (١٠) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر(١١) وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر (١٢)وحملناه على ذات ألواح ودسر (١٣) }، والدسر السائر { تجري بأعيننا} ، أي بحفظنا وكلائتنا، وحراستنا، ومشاهدتنا لها، { جزاء لمن كان كفر}.

وقد ذكر ابن جرير وغيره: أن الطوفان كان في ثالث عشر من شهر آب في حساب القبط، وقال تعالى: { إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية}، أي السفينة { نجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية}، قال جماعة من المفسرين: ارتفع الماء على أعلى جبل بالأرض خمسة عشر ذراعا، وهو الذي عند أهل الكتاب. وقيل: ثمانين ذراعا، وعم جميع الأرض طولها والعرض، سهلها وحزنها وجبالها وقفارها

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ورمالها، ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف، ولا صغير ولا كبير.
قال الإمام مالك عن زيد بن أسلم: كان أهل ذلك الزمان قد ملأوا السهل والجبل، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لم تكن بقعة في الأرض إلا ولها مالك وحائز، رواهما ابن أبي حاتم. { ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين(٤٢) قال سآوى إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بنيهما الموج فكان من المغرقين(٤٣)}، وهذا الابن هو: يام أخو سام وحام ويافث، وقيل: اسمه كنعان، وكان كافرًا عمل عملاً غير صالح، فخالف أباه في دينه ومذهبه فهلك مع من هلك، هذا وقد نجا مع أبيه الأجانب في النسب، لما كانوا موافقين في الدين والمذهب { وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء اقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين} ، أي لما فرغ من أهل الأرض ولم يبق منها أحد ممن عبد غير الله عز وجل، أمر الله الأرض أن تبلع ماءها، وأمر السماء أن تقلع أي تمسك عن المطر { وغيض الماء}، أي نقص عما كان { وقضى الأمر}، أي وقع بهم الذي كان قد سبق في علمه وقدره من إحلاله بهم ما حل بهم { وقيل بعدًا للقوم الظالمين}، أي نودي عليهم بلسان القدرة، بعدًا لهم من الرحمة والمغفرة، كما قال تعالى: { فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين} .
وقال تعالى: { فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين}، وقال تعالى: { ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين} ، وقال تعالى: { فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم} ، وقال تعالى: { فأنجيناه

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين} ، وقال تعالى: { ثم أغرقنا الآخرين} ، وقال: { ولقد تركناها آية فهل من مدكر (١٥) فكيف كان عذابي ونذر (١٦) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر(١٧) } ، وقال تعالى: { مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارًا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارًا (٢٥) وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا (٢٦) إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدو إلا فاجرا كفارا(٢٧)}، وقد استجاب الله تعالى، وله الحمد والمنة، دعوته فلم يبق منهم عين تطرف.

وقد روى الإمامان أبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبي حاتم في تفسيريهما من طريق يعقوب بن محمد الزهرى، عن قائد، مولى عبد الله بن أبي رافع، أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره أن عائشة أم المؤمنين أخبرته، أن رسول الله ρ قال: **(فلو رحم الله من قوم نوح أحدًا لرحم أم الصبي).** قال رسول الله ρ : **(مكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة، يعني إلا خمسين عامًا، وغرس مائة سنة الشجر فعظمت وذهبت كل مذهب، ثم قطعها، ثم جعلها سفينة، ويمرون عليه ويسخرون منه، ويقولون: تعمل سفينة في البر، كيف تجري؟ قال: سوف تعلمون، فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك، خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حبا شديدا، خرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها، فغرقا، فلو رحم الله منهم أحدًا لرحم أم الصبى).** وهذا حديث غريب، وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد وغير واحد شبيه لهذه القصة، وأحرى بهذا الحديث أن يكونا موقوفًا متلقى عن مثل كعب الأحبار، والله أعلم.

والمقصود: أن الله لم يبق من الكافرين ديارًا، فكيف يزعم بعض المفسرين أن عوج ابن عنق، ويقال: ابن عناق، كان موجودًا من قبل نوح إلى زمان موسى، ويقولون: كان كافرًا متمردًا جبارًا عنيدًا، ويقولون: كان لغير رشدة، بل ولدته أمه عنق بنت آدم من زنا، وإنه

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحار ويشويه في عين الشمس، وإنه كان يقول لنوح وهو في السفينة: ما هذه القصيعة التى لك؟ ويستهزئ به، ويذكرون: أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاث مائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلثا، إلى غير ذلك من الهذيانات التى لولا أنها مسطرة في كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لما تعرضنا لحكايتها لسقاطتها وركاكتها، ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول.

أما المعقول: فكيف يسوغ فيه أن يهلك الله ولد نوح لكفره، وأبوه نبي الأمة وزعيم أهل الإيمان، ولا يهلك عوج بن عنق، ويقال: عناق، وهو أظلم وأطغى على ما ذكروا، وكيف لا يرحم الله منهم أحدا، ولا أم الصبي، ولا الصبي، ويترك هذا الدعي الجبار العنيد الفاجر الشديد الكافر الشيطان المريد على ما ذكروا.

وأما المنقول: فقد قال الله تعالى: { ثم أغرقنا الآخرين}، وقال: { رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا}، ثم هذا الطول الذى ذكروه مخالف لما في الصحيحين عن النبي ρ أنه قال: **(إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن).**

فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، أنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن، أي لم يزل الناس في نقصان في طولهم من آدم إلى يوم أخبره بذلك، وهلم جرا إلى يوم القيامة.

وهذا يقتضي أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه، فكيف يترك هذا ويذهل عنه ويصار إلى أقوال الكذبة الكفرة من أهل الكتاب الذين بدلوا كتب الله المنزلة وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها، فما ظنك بما هم يستقلون بنقله، أو يؤتمنون عليه، وما أظن أن هذا الخبر عن عوج بن عناق إلا اختلاقًا من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء، والله أعلم.

ثم ذكر الله تعالى مناشدة نوح ربه في ولده وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف، ووجه السؤال أنك وعدتني بنجاة أهلي معي وهو منهم وقد غرق، فأجيب: بأنه ليس من أهلك، أي الذين

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وعدت بنجاتهم، أي أما قلنا لك: { وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم} ، فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأن سيغرق بكفره، ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان، فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان، ثم قال تعالى: { قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم}، هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض وأمكن السعى فيها والاستقرار عليها أن يهبط من السفينة التى كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودى، وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور، وقد قدمنا ذكره عند خلق الجبال { بسلام منا وبركات} ، أي اهبط سالما مباركًا عليك، وعلى أمم ممن سيولد بعد، أي من أولادك، فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلاً ولا عقبًا سوى نوح عليه السلام، قال تعالى: { وجعلنا ذريته هم الباقين}، فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم: **(سام، وحام، ويافث).**

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الملحق (٢)

قصة لوط عليه السلام[١]

كان مما وقع في حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة قصة قوم لوط عليه السلام، وما حل بهم من النقمة الغميمة، وذلك أن لوطًا بن هاران بن تارح، وهو آزر كما جاء في القرآن، ولوط ابن أخي إبراهيم الخليل، فإبراهيم وهاران وناحور أخوة، كما قدمنا، ويقال: إن هاران هذا هو الذي بنى حران، وهذا ضعيف لمخالفته ما بأيدي أهل الكتاب، والله أعلم، وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له، وأذنه فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر، وكان أم تلك المحلة، ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة إليها، ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية وأرداهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين، فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات والأفاعيل المستقبحات، فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحل الله بهم من البأس الذى لا يرد ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم، وجعلهم مثلة في العالمين، وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين، ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم في غير ما موضع من كتابه المبين فقال تعالى في سورة الأعراف: { وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا

---

(١) موسوعة الدكتور طارق السويدان، قصص الأنبياء، قرص مدمج.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)}.

وقال تعالى في سورة هود: { وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ(٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ(٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ(٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)}.

وقال تعالى في سورة الحجر: { وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠)فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) } .

وقال تعالى في سورة الشعراء: { كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ(١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩)فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) } ، وقال تعالى في سورة النمل: { وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨) }.

وقال تعالى في سورة العنكبوت: { وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) }.

وقال تعالى في سورة الصافات: { وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) } .. وقال تعالى في الذاريات، بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم: { قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) } .. وقال في سورة القمر: { كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٤٠) }.
وقد تكلم المفسرون عن هذه القصص في أماكنها من تفاسيرهم، وقد ذكر الله لوطًا وقومه في موضع آخر من القرآن جاء ذكره مع قوم نوح وعاد وثمود، والمقصود الآن إيراد ما كان من أمرهم، وما أحل الله بهم، مجموعا من الآيات والآثار، وبالله المستعان. وذلك: أن لوطا عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله عنهم من الفواحش، فلم يستجيبوا له، ولم يؤمنوا به، حتى ولا رجل واحد منهم، ولم يتركوا ما عنه نهوا، بل استمروا على حالهم ولم يرتدعوا عن غيهم وضلالهم، وهموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم، وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم إذ كانوا لا يعقلون {إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون} فجعلوا غاية المدح ذمًا يقتضي الإخراج، وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج، فطهره الله وأهله، إلا امرأته، وأخرجهم منها أحسن إخراج، وتركهم في محلتهم خالدين، لكن بعد ما صيرها عليهم بحيرة منتنة ذات أمواج، لكنها عليهم في الحقيقة: نار تأجج وحر يتوهج وماؤها ملح أجاج، وما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن الطامة العظمى والفاحشة الكبرى التى لم يسبقهم إليها أحد من أهل الدنيا، ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها، وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ويخونون الرفيق ويأتون في ناديهم، وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم، المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه، حتى قيل: إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم ولا يستحيون من مجالسهم، وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحافل، ولا يستنكفون ولا يرعوون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل، وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلاً، ولم يقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر، ولا ندموا على ما سلف من الماضى، ولا راموا في المستقبل تحويلاً، فأخذهم الله أخذًا وبيلاً، وقالوا له فيما قالوا: {ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين} فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم وحلول البأس العظيم، فعند ذلك دعا

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عليهم نبيهم الكريم، فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين، فغار الله لغيرته، وغضب لغضبته، واستجاب لدعوته، وأجابه إلى طلبته، وبعث رسله الكرام وملائكته العظام، فمروا على الخليل إبراهيم، وبشروه بالغلام العليم، وأخبروه بما جاءوا له من الأمر الجسيم والخطب العميم: { قال فما خطبكم أيها المرسلون (٣١) قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (٣٢) لنرسل عليهم حجارة من طين(٣٣) مسومة عند ربك للمسرفين(٣٤)} ، (الذاريات).. وقال: { ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين (٣١) قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين(٣٢)}، (العنكبوت).

وقال الله تعالى: { فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط} ، وذلك إنه كان يرجوا أن ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا، ولهذا قال تعالى: { إن إبراهيم لحليم أواه منيبٌ (٧٥) يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذابٌ غير مردود(٧٦)}، (هود). أي أعرض عن هذا وتكلم في غيره، فإنه قد حتم أمرهم، ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم { إنه قد جاء أمر ربك} أي قد أمر به من لا يرد أمره ولا يرد بأسه ولا معقب لحكمه { وإنهم آتيهم عذاب غير مردود} .

وذكر سعيد بن جبير والسدي وقتادة ومحمد بن إسحاق: أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: فمائتا مؤمن؟ قالوا: لا، قال فأربعون مؤمنا؟ قالوا: لا، قال: فأربعة عشر مؤمنا؟ قالوا: لا، قال ابن إسحاق: إلى أن قال: أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا: لا؟ { قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها} الآية.

وعند أهل الكتاب أنه قال: يا رب، أتهلكهم وفيهم خمسون رجلا صالحا؟ فقال الله لا أهلكهم وفيهم خمسون صالحا، ثم تنازل إلى

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عشرة، فقال الله: لا أهلكهم وفيهم عشرة صالحون، قال الله تعالى: { ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يومٌ عصيبٌ} ، قال المفسرون: ولما فصلت الملائكة من عند إبراهيم، وهم: **(جبريل وميكائيل وإسرافيل)**، أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صور شبان حسان، اختبارًا من الله تعالى لقوم لوط، وإقامة للحجة عليهم، فاستضافوا لوطا عليه السلام، وذلك عند غروب الشمس، فخشى إن لم يضفهم يضيفهم غيره، وحسبهم بشرًا من الناس { وسيىء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب} .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحاق: شديد بلاؤه وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم، كما كان يصنع بهم في غيرهم، وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحدًا، ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه. وذكر قتادة أنهم وردوا عليه وهو في أرض له يعمل فيها، فتضيفوا فاستحيى منهم وانطلق أمامهم وجعل يعرض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلوا في غيرها، فقال لهم فيما قال: يا هؤلاء، ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء، ثم مشى قليلاً ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات، قال: وكانوا قد أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك.

وقال السدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قوم لوط فأتوها نصف النهار فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها، وكانت له ابنتان: اسم الكبرى ريثا، والصغرى ذعرتا، فقالوا لها: يا جارية، هل من منزل؟ فقالت لهم: مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم، فرقت عليهم من قومها فأتت أباها، فقالت: يا أبتاه، أرادك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط هي أحسن منهم لا يأخذهم قومك فيفضحوهم، وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلاً، فجاء بهم فلم يعلم أحدا إلا أهل البيت، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، فقالت: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط، فجاءه قومه يهرعون إليه، وقوله: { ومن قبل كانوا يعملون السيئات } ، أي هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة {

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم} يرشدهم إلى غشيان نسائهم، وهن بناته شرعًا لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد، كما ورد في الحديث، وكما قال تعالى: { النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم} ، وفي قول بعض الصحابة والسلف: وهو أب لهم، وهذا كقوله تعالى في سورة الشعراء: { أتأتون الذكران من العالمين (١٦٥) وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون(١٦٦)} ، وهذا هو الذي نص عليه مجاهد وسعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وهو الصواب. والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب، وقد تصحف عليهم كما أخطأوا في قولهم: إن الملائكة كانوا اثنين، وإنهم تعشوا عنده، وقد خبط أهل الكتاب في هذه القصة تخبيطًا عظيمًا.

وقوله: { فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد} نهى لهم عن تعاطي ما لا يليق من الفاحشة وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة ولا فيه خير، بل الجميع سفهاء فجرة أقوياء كفرة أغبياء، وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوا منه من قبل أن يسألوه عنه، فقال قومه، عليهم لعنة الله الحميد المجيد، مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد: { لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد} يقولون، عليهم لعائن الله: لقد علمت يا لوط إنه لا أرب لنا في نسائنا، وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا، واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم ولم يخافوا سطوة العظيم ذي العذاب الأليم، ولهذا قال عليه السلام: { لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد} ود أن لو كان له بهم قوة، أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب.

وقد قال الزهري: عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة، عن أبي هريرة مرفوعًا: نحن أحق بالشك من إبراهيم، ويرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الداعى. ورواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة. وقال محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، أن رسول الله ρ قال: **(رحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد، يعني الله عز وجل، فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه).**

وقال تعالى: { وجاء أهل المدينة يستبشرون (٦٧) قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون (٦٨) واتقوا الله ولا تخزون (٦٩) قالوا أو لم ننهك عن العالمين (٧٠) قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين(٧١) }، فأمرهم بقربان نسائهم، وحذرهم الاستمرار على طريقتهم، وسيئاتهم هذا وهم في ذلك لا ينتهون ولا يرعوون، بل كلما نصح لهم يبالغون في تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرضون، ولم يعلموا ما حم به القدر مما هم إليه صائرون، وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون، ولهذا قال تعالى مقسما بحياة نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه: { لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون} ، وقال تعالى في سورة القمر: { ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر(٣٦) ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر(٣٧) ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر (٣٨)} ، ذكر المفسرون وغيرهم: أن نبي الله لوطا عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول، ويدافعهم والباب مغلق، وهم يرومون فتحه وولوجه، وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب، وكل ما لهم في اللجاج والعاج، فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال: { لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد} لأحللت بكم النكال، قالت الملائكة: { يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك} وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه، فطمست أعينهم حتى قيل: إنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر، فرجعوا يتحسسون مع الحيطان ويتوعدون رسول الرحمن ويقولون: إذا كان الغد كان لنا وله شأن.

قال الله تعالى: { ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر (٣٧)ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر(٣٨) } فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط عليهم السلام آمرين له بأن

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

يسري هو وأهله من آخر الليل { ولا يلتفت منكم أحد} يعني عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه، وأمروه أن يكون سيره في آخرهم كالساقة لهم، وقوله: { إلا امرأتك} على قراءة النصب يحتمل أن يكون مستثنى من قوله: فأسر بأهلك، كأنه يقول: إلا امرأتك فلا تسر بها، ويحتمل أن يكون من قوله: { ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك} أي فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم، ويقوى هذا الاحتمال قراءة الرفع، ولكن الأول أظهر في المعنى، والله أعلم.

قال السهيلي: واسم امرأة لوط: والهة، واسم امرأة نوح، والغة، وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة الملعونين النظراء والأشباه الذين جعلهم الله سلفًا لكل خائن مريب: { إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب}، فلما خرج لوط عليه السلام بأهله وهم ابنتاه ولم يتبعه منهم رجل واحد، ويقال: إن امرأته خرجت معه، فالله أعلم، فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكان عند شروقها جاءهم من أمر الله ما لا يرد، ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد. وعند أهل الكتاب: أن الملائكة أمروه أن يصعد إلى رأس الجبل الذى هناك فاستبعده وسأل منهم أن يذهب إلى قرية قريبة منهم فقالوا: اذهب فإنا ننتظرك حتى تصير إليها وتستقر فيها، ثم نحل بهم العذاب. فذكروا أنه ذهب إلى قرية: صغر التى يقول الناس: غور زغر، فلما اشرقت الشمس نزل بهم العذاب.

قال الله تعالى: { فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد} قالوا: اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن وكن سبع مدن بمن فيهن من الأمم، فقالوا: إنهم كانوا أربع مائة نسمة، وقيل: أربعة آلاف نسمة، وما معهم من الحيوانات، وما يتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن والمعتملات، فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها، قال مجاهد: فكان أول ما سقط منها شرفاتها { وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل}، والسجيل: فارسي

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

معرب، وهو: الشديد الصلب القوي { منضود}، أي يتبع بعضها بعضا في نزولها عليهم من السماء { مسومة}، أي معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذى يهبط عليه فيدمغه، كما قال: { مسومة عند ربك للمسرفين} ، وكما قال تعالى: { وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين} ، وقال تعالى: { والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى}، يعني قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها، وغشاها بمطر من حجارة من سجيل متتابعة مرقومة على كل حجر اسم صاحبه الذى سقط عليه من الحاضرين منهم في بلدهم، والغائبين عنها من المسافرين، والنازحين والشاذين منها، ويقال: إن امرأة لوط مكثت مع قومها، ويقال: إنها خرجت مع زوجها وبنتيها، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة والتفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديمًا وحديثًا، وقالت: واقوماه فسقط عليها حجر فدمغها، وألحقها بقومها إذ كانت على دينهم وكانت عينًا لهم على من يكون عند لوط من الضيفان، كما قال تعالى: { ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين}، أي خانتاهما في الدين فلم يتابعاهما فيه، وليس المراد: أنهما كانتا على فاحشة حاشا وكلا ولما فإن الله لا يقدر على نبي أن تبغى امرأته كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف: ما بغت امرأة نبي قط، ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيرًا.

قال الله تعالى في قصة الإفك لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج رسول الله ρ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فعاتب الله المؤمنين وأنب وزجر ووعظ وحذر وقال فيما قال تعالى في سورة النور: { إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم(١٥) ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم(١٦)} أي سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة، وقوله هاهنا: { وما هى من الظالمين ببعيد} أي وما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم في

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فعلهم، ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم سواء كان محصنًا أو لا، نص عليه الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة، واحتجوا أيضا بما رواه الإمام أحمد، وأهل السنن من حديث عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس أن رسول الله ρ قال: **(من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به).**

وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق جبل، ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط، لقوله تعالى: { وما هى من الظالمين ببعيد} وجعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها، ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها لرداءتها ودناءتها، فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته في انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه، ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين في انجائه إياهم من المهلكات، وإخراجه إياهم من النور إلى الظلمات، كما قال تعالى: { إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم} ، وقال تعالى: { فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن في ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم إن في ذلك لآية للمؤمنين} أي من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم، كيف غير الله تلك البلاد وأهلها وكيف جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة هالكة غامرة؟ كما روى الترمذي وغيره مرفوعا: **(اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)** ثم قرأ: { إن في ذلك لآيات للمتوسمين}.

وقوله: { وإنها لبسبيل مقيم} أي لبطريق مهيع مسلوك إلى الآن، كما قال: { وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون} ، وقال تعالى: { ولقد تركناها آية بينة لقوم يعقلون} ، وقال تعالى: { فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم} أي تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة وخشي الرحمن بالغيب وخاف

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فانزجر عن محارم الله وترك معاصيه وخاف أن يشابه قوم لوط **(ومن تشبه بقوم فهو منهم)** وإن لم يكن من كل وجه، فمن بعض الوجوه، كما قال بعضهم: فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم، فما قوم لوط منكم ببعيد، فالعاقل اللبيب الخائف من ربه الفاهم يمتثل ما أمره الله به عز وجل، ويقبل ما أرشده إليه رسول الله من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال، والجواري من السراري ذوات الجمال، وإياه أن يتبع كل شيطان مريد، فيحق عليه الوعيد، ويدخل في قوله تعالى: { وما هى من الظالمين ببعيد}.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الملحق (٣)

قصة موسى الكليم عليه السلام[١]

وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، قال تعالى في سورة مريم: { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً (٥٣) }، وقد ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة متفرقة من القرآن، وذكر قصته في مواضع متعددة مبسوطة مطولة وغير مطولة، وقد تكلم عن ذلك كله في مواضعه كل أهل التفسير، وسنورد سيرته هاهنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسنة، وما ورد في الآثار المنقولة من الإسرائيليات التي ذكرها السلف وغيرهم إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

قال الله تعالى في سورة القصص: { طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) }.. يذكر تعالى ملخص القصة ثم يبسطها بعد هذا، فذكر أنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق، أي بالصدق الذى كأن سامعه مشاهد للأمر معاين له { إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا} أي تجبر وعتا وطغى وبغى، وآثر الحياة الدنيا، وأعرض عن طاعة الرب الأعلى { وجعل أهلها شيعا} أي قسم رعيته إلى أقسام وفرق، وأنواع

---

(١) موسوعة الدكتور طارق السويدان، قصص الأنبياء، قرص مدمج.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

يستضعف طائفة منهم، وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله، وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض، وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف وأرداها وأدناها ومع هذا: { يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين} وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه وذلك، والله أعلم، حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر من إرادته إياها على السوء، وعصمة الله لها، وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل، فتحدث بها القبط فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون فذكرها له بعض أمرائه وأساورته وهم يسمرون عنده، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل حذرا من وجود هذا الغلام، ولن يغني حذر من قدر.

وذكر السدي عن أبي صالح وأبي مالك، عن ابن عباس وعن مرة، عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة: أن فرعون رأى في منامه كأن نارًا قد أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بني إسرائيل، فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة والحزأة والسحرة، وسألهم عن ذلك؟ فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان، ولهذا قال الله تعالى: { ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض} وهم بنو إسرائيل { ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين} أي الذين يؤول ملك مصر وبلادها إليهم { ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون} أي سنجعل الضعيف قويا، والمقهور قادرا، والذليل عزيزا، وقد جرى هذا كله لبني إسرائيل، كما قال تعالى في سورة الأعراف (١٣٧): { وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ بِمَا

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ }، الآية، وقال تعالى في الدخان: { كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦)وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ(٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ (٢٨)} . وسيأتى تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله.

والمقصود: أن فرعون احترز كل الاحتراز أن لا يوجد موسى، حتى جعل رجالا وقوابل يدورون على الحبالى، ويعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكرا إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته. وعند أهل الكتاب: أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان لتضعف شوكة بني إسرائيل، فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم، وهذا فيه نظر، بل هو باطل، وإنما هذا في الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى، كما قال تعالى: { فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم}، ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى: { أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا} فالصحيح: أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً حذرًا من وجود موسى، هذا والقدر يقول: يا أيها ذا الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده، وسلطة بأسه واتساع سلطانه، قد حكم العظيم الذى لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف أقداره، أن هذا المولود الذى تحترز منه وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى، لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك، وأنت الذى تتبناه وتربيه، وتتعداه ولا تطلع على سر معناه، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه، لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين، وتكذيبك ما أوحى إليه لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السماوات والأرض هو الفعال لما يريد، وأنه هو القوى الشديد ذو البأس العظيم والحول والقوة والمشيئة التى لا مرد لها.

وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بني إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور، وخشى أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون،

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فأمر فرعون بقتل الأبناء عامًا وأن يتركوا عامًا، فذكروا أن هارون عليه السلام ولد في عام المسامحة عن قتل الأبناء، وأن موسى عليه السلام ولد في عام قتلهم، فضاقت أمه به ذرعًا واحترزت من أول ما حَبلت، ولم يكن يظهر عليها مخائيل الحَبَل، فلما وضعت أُلهمت أن اتخذت له تابوتا فربطته في حبل، وكانت دارها متاخمة للنيل، فكانت ترضعه فإذا خَشِيَت من أحد وضعته في ذلك التابوت فأرسلته في البحر وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به، قال الله تعالى: { وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩)} ، (القصص). هذا الوحي وحى إلهام وإرشاد كما قال تعالى في سورة النحل: { وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٦٩)}، الآية، وليس هو بوحي نبوة كما زعمه ابن حزم وغير واحد من المتكلمين، بل الصحيح الأول كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة.

قال السهيلي : واسم أم موسى أيارخا: وقيل: أياذخت. والمقصود: أنها أرشدت إلى هذا الذي ذكرناه وأُلقى في خلدها وروعها أن لا تخافي ولا تحزني، فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك، وإن الله سيجعله نبيا مرسلا يعلي كلمته في الدنيا والآخرة، فكانت تصنع ما أمرت به، فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها، فذهب مع النيل فمر على دار فرعون { فالتقطه آل فرعون}، قال الله تعالى: { ليكون لهم عدوا وحزنا} قال بعضهم: هذه لام العاقبة، وهو ظاهر إن كان متعلقا بقوله: { فالتقطه} وأما إن جعل

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

متعلقا بمضمون الكلام، وهو أن آل فرعون قُيِّضُوا لالتقاطه ليكون لهم عدوا وحزنا، صارت اللام معللة كغيرها، والله أعلم، ويقوي هذا التقدير الثاني قوله: { إن فرعون وهامان} وهو الوزير السوء { وجنودهما} المتابعين لهما { كانوا خاطئين} أي كانوا على خلاف الصواب، فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة.

وذكر المفسرون: أن الجواري التقطنه من البحر في تابوت مغلق عليه، فلم يتجاسرون على فتحه حتى وضعنه بين يدي امرأة فرعون: آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد الذى كان فرعون مصر في زمن يوسف، وقيل: إنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى، وقيل: بل كانت عمته، حكاه السهيلي ، فالله أعلم.

وسيأتى مدحها والثناء عليها في قصة مريم بنت عمران، وأنهما يكونان يوم القيامة من أزواج رسول الله ρ في الجنة. فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية والجلالة الموسوية، فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حبا شديدا جدا، فلما جاء فرعون قال: ما هذا؟ وأمر بذبحه، فاستوهبته منه ودفعت عنه وقالت: { قرة عين لى ولك} فقال لها فرعون: أما لك فنعم، وأما لى فلا، أي لا حاجة لى به والبلاء موكل بالمنطق، وقولها: { عسى أن ينفعنا} وقد أنالها الله ما رجت من النفع، أما في الدنيا: فهداها الله به، وأما في الآخرة: فأسكنها جنته بسببه { أو نتخذه ولدا} وذلك أنهما تبنياه، لأنه لم يكن يولد لهما ولد، قال الله تعالى: { وهم لا يشعرون} أي لا يدرون ماذا يريد الله بهم أن قيضهم لالتقاطه من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده { وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣) }، (القصص). قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عبيدة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم: { وأصبح فؤاد أم موسى فارغًا} أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى { إن كادت لتبدي به} أي لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة { لولا أن ربطنا على قلبها} أي صبرناها وثبتناها { لتكون من المؤمنين} وقالت لأخته وهى ابنتها الكبيرة: { قُصِّيه} أي اتبعى أثره واطلبي له خبره { فبصرت به عن جنب} قال مجاهد: عن بعد. وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده، ولهذا قال: { وهم لا يشعرون} وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقر بدار فرعون أرادوا أن يغذوه برضاعة، فلم يقبل ثديا ولا أخذ طعامًا، فحاروا في أمره واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن، فلم يفعل، كما قال تعالى: { وحرمنا عليه المراضع من قبل} فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق لعلهم يجدون من يوافق رضاعته، فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه إذ بصرت به أخته، فلم تظهر إنها تعرفه بل قالت: { هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون} قال ابن عباس: لما قالت ذلك قالوا لها: ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه؟ فقالت: رغبة في صِهْر الملك ورجاء منفعته، فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم، فأخذته أمه فلما أرضعته التقم ثديها، وأخذ يمتصه ويرتضعه، ففرحوا بذلك فرحا شديدا وذهب البشير إلى آسية يعلمها بذلك، فاستدعتها إلى منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها، وأن تحسن إليها فأبت عليها، وقالت: إن لى بعلاً وأولادًا ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معى فأرسلته معها، ورتبت لها رواتب وأجرت عليها النفقات والكساوي والهبات، فرجعت به تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها.

قال الله تعالى: { فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق} أي كما وعدناها برده ورسالته فهذا رده، وهو دليل على صدق البشارة برسالته { ولكن أكثرهم لا يعلمون} وقد امتن الله على موسى بهذا ليلة كلمه، فقال له فيما قال: { ولقد مننا عليك مرة أخرى إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه في التابوت

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة منى} وذلك أنه كان لا يراه أحد إلا أحبه { ولتصنع على عينى} إذ قال قتادة وغير واحد من السلف: أي تطعم وترفه وتغذى بأطيب المآكل وتلبس أحسن الملابس بمرأى مني، وذلك كله بحفظى وكلائتى لك فيما صنعت بك لك، وقدرته من الأمور التي لا يقدر عليها غيري { إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرددناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا} وسنورد حديث الفتون في موضعه بعد هذا إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان.

{ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ(١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (١٧)}، (القصص).

لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها وإحسانه بذلك وامتنانه عليها شرع في ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى، وهو احتكام الخلق والخلق وهو سن الأربعين في قول الأكثرين، آتاه الله حكما وعلما، وهو النبوة والرسالة التى كان بشر بها أمه حين قال: { إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين} ثم شرع في ذكر سبب خروجه من بلاد مصر وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هنالك حتى كمل الأجل، وانقضى الأمد، وكان ما كان من كلام الله له، وإكرامه بما أكرمه به، كما سيأتي، قال تعالى: { ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها} قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدي: وذلك نصف النهار، وعن ابن عباس: بين العشائين { فوجد فيها رجلين يقتتلان} أي يتضاربان ويتهاوشان { هذا من شيعته} أي إسرائيلي { وهذا من عدوه} أي قبطي، قاله ابن عباس وقتادة والسدي ومحمد بن

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

إسحاق { فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه} وذلك أن موسى عليه السلام كانت له بديار مصر صولة، بسبب نسبته إلى تبني فرعون له، وتربيته في بيته، وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاهة، وارتفعت رءوسهم بسبب أنهم أرضعوه وهم أخواله، أي من الرضاعة، فلما استغاث ذلك الإسرائيلى موسى عليه السلام على ذلك القبطي أقبل إليه موسى { فوكزه} قال مجاهد: أي طعنه بجمع كفه، وقال قتادة: بعصا كانت معه { فقضى عليه} أي فمات منها، وقد كان ذلك القبطي كافرًا مشركًا بالله العظيم، ولم يرد موسى قتله بالكلية، وإنما أراد زجره وردعه، ومع هذا قال موسى –كما في تتمة القصة في سورة القصص- : { وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قال رب بما أنعمت علي..} أي من العز والجاه { قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١)} .

يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر { خائفا} أي من فرعون وملئه أن يعلموا أن هذا القتيل الذى رفع إليه أمره إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم، ويترتب على ذلك أمر عظيم، فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم { خائفا يترقب} أي يلتفت، فبينما هو كذلك إذا ذلك الرجل

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الإسرائيلي الذى استنصره بالأمس { يستصرخه} أي يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته، قال له: { إنك لغوى مبين} ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي الذى هو عدو لموسى وللإسرائيلي فيردعه عنه ويخلصه منه، فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي { قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارًا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين} قال بعضهم: إنما قال هذا الكلام الإسرائيلي الذى اطلع على ما كان صنع موسى بالأمس، وكأنه لما رأى موسى مقبلاً إلى القبطي اعتقد أنه جاء إليه لما عنفه قبل ذلك بقوله: { إنك لغوى مبين} فقال ما قال لموسى، وأظهر الأمر الذى كان وقع بالأمس، فذهب القبطي فاستعدى موسى إلى فرعون، وهذا الذى لم يذكر كثير من الناس سواه، ويحتمل أن قائل هذا هو القبطي، وأنه لما رآه مقبلاً إليه خافه، ورأى من سجيته انتصارًا جيدًا للإسرائيلي، فقال ما قال من باب الظن والفراسة: إن هذا لعله قاتل ذاك القتيل بالأمس، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلي حين استصرخه عليه ما دله على هذا، والله أعلم.

والمقصود: أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس، فأرسل في طلبه، وسبقهم رجل ناصح عن طريق أقرب { وجاء رجل من أقصى المدينة} ساعيًا إليه مشفقا عليه، فقال: { يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج} أي من هذه البلدة { إني لك من الناصحين} أي فيما أقوله لك، قال الله تعالى: { فخرج منها خائفا يترقب} أي فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه، لا يهتدي إلى طريق، ولا يعرفه قائلا: { ..رب نجني من القوم الظالمين(٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)}، (القصص).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر { خائفا يترقب} أي يتلفت، خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون، وهو لا يدري أين يتوجه، ولا إلى أين يذهب، وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها { ولما توجه تلقاء مدين} أي اتجه له طريق يذهب فيه { قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل} أي عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود، وكذا وقع، فقد أوصَلَتْه إلى مقصود وأي مقصود { ولما ورد ماء مدين} وكانت بئرًا يستقون منها، ومدين هي المدينة التى أهلك الله فيها أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب عليه السلام، وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام في أحد قولي العلماء ولما ورد الماء المذكور { وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان} أي تكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم الناس. وعند أهل الكتاب: أنهن كن سبع بنات، وهذا أيضا من الغلط، وكأنه كن سبعًا، ولكن إنما كان تسقي اثنتان منهن، وهذا الجمع ممكن إن كان ذاك محفوظا، وإلا فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتان { قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير } أي لا نقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء، لضعفنا، وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا وكبره، قال الله تعالى: { فسقى لهما}.

قال المفسرون: وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة، فتجيء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما في فضل أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده، ثم استقى لهما وسقى غنمهما، ثم رد الحجر كما كان، قال أمير المؤمنين عمر: وكان لا يرفعه إلا عشرة، وإنما استقى ذنوبًا واحدًا فكفاهما، ثم تولى إلى الظل، قالوا: وكان ظل شجرة من السمر، روى ابن جرير عن ابن مسعود أنه رآها خضراء ترف { قال رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير} قال ابن عباس: سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر، وكان حافيًا، فسقطت نعلا قدميه من الحفاء، وجلس في الظل، وهو صفوة

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الله من خلقه، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وأنه لمحتاج إلى شق تمرة، قال عطاء بن السائب لما { قال رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير} أسمع المرأة { فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦)
قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)}، (القصص).. لما جلس موسى عليه السلام في الظل و{ قال رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير} سمعته المرأتان فيما قيل، فذهبتا إلى أبيهما، فيقال: إنه استنكر سرعة رجوعهما فأخبرتاه ما كان من أمر موسى عليه السلام، فأمر إحداهما أن تذهب إليه فتدعوه، { فجاءته إحداهما تمشي على استحياء} أي مشي الحرائر { قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا} صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة، وهذا من تمام حيائها وصيانتها، { فلما جاءه وقص عليه القصص}، وأخبره خبره، وما كان من أمره في خروجه من بلاد مصر فرارًا من فرعونها { قال} له ذلك الشيخ: { لا تخف نجوت من القوم الظالمين} أي خرجت من سلطانهم، فلست في دولتهم.
وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو؟ فقيل: هو شعيب عليه السلام، وهذا هو المشهور عند كثيرين وممن نص عليه الحسن البصري ومالك بن أنس، وجاء مصرحًا به في حديث، ولكن في إسناده نظر، وصرح طائفة بأن شعيبًا عليه السلام عاش عمرًا طويلاً بعد هلاك قومه، حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته. وروى ابن أبي حاتم وغيره عن الحسن البصرى: أن صاحب موسى عليه السلام

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

هذا اسمه شعيب، وكان سيد الماء، ولكن ليس بالنبي صاحب مدين. وقيل: إنه ابن أخي شعيب، وقيل: ابن عمه، وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب، وقيل: رجل اسمه يثرون، هكذا هو في كتب أهل الكتاب: يثرون كاهن مدين، أي كبيرها وعالمها. قال ابن عباس وأبو عبيدة بن عبد الله: اسمه يثرون. زاد أبو عبيدة: وهو ابن أخى شعيب. زاد ابن عباس: صاحب مدين.

والمقصود: أنه لما أضافه، وأكرم مثواه، وقص عليه ما كان من أمره، بشره بأنه قد نجا، فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها: { يا أبت استأجره} أي لرعي غنمك، ثم مدحته بأنه قوى أمين. قال عمر وابن عباس وشريح القاضى وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد: لما قالت ذلك قال لها أبوها: وما علمك بهذا؟ فقالت: إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة، وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال: كوني من ورائي، فإذا اختلف الطريق فاقذفي لى بحصاة أعلم بها كيف الطريق.

قال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: صاحب يوسف حين قال لامرأته { أكرمي مثواه} وصاحبة موسى حين قالت: { يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين}، وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب. { قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين} استدل بهذا جماعة من أصحاب أبي حنيفة رحمه الله، على صحة ما إذا باعه أحد هذين العبدين أو الثوبين ونحو ذلك أنه يصح، لقوله: { إحدى ابنتى هاتين} وفي هذا نظر، لأن هذه مراوضة لا معاقدة، والله أعلم.

واستدل أصحاب أحمد على صحة الإيجار بالطعمة والكسوة كما جرت به العادة، واستأنسوا بالحديث الذى رواه ابن ماجه في سننه مترجمًا في كتابه، باب استئجار الأجير، على طعام بطنه: حدثنا محمد بن الصفي الحمصي. حدثنا بقية بن الوليد، عن مسلمة بن علي، عن سعيد بن أبي أيوب، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

رباح، قال: سمعت عتبة بن الندر، يقول: كنا عند رسول الله ρ فقرأ: { طسم} حتى إذا بلغ قصة موسى قال: **(إن موسى عليه السلام آجر نفسه ثماني سنين، أو عشرة، على عفة فرجه وطعام بطنه)**. وهذا من هذا الوجه لا يصح لأن مسلمة بن على الحسني الدمشقي البلاطي ضعيف عند الأئمة لا يحتج بتفرده. ولكن قد روي من وجه آخر فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبوزرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكر، حدثني ابن لهيعة وحدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمى، عن علي بن رباح اللخمي، قال: سمعت عتبة بن الندر السلمي، صاحب رسول الله ρ يحدث، أن رسول الله ρ قال: **(إن موسى عليه السلام آجر نفسه لعفة فرجه وطعمة بطنه)**. ثم قال تعالى: { ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل} يقول: إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلت، فأيهما قضيت فلا عدوان علي، والله على مقالتنا سامع ومشاهد، ووكيل على وعليك، ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما، وهو العشر سنين، كوامل تامه.

قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا مروان ابن شجاع، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير، قال: سألني يهودي من أهل الحيرة، أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري، حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل. تفرد به البخاري من هذا الوجه. وقد رواه النسائى في حديث الفتون، كما سيأتي، من طريق القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبير. وقد رواه ابن جرير عن أحمد بن محمد الطوسي. وابن أبي حاتم عن أبيه كلاهما عن الحميدي، عن سفيان بن عيينة، حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة عن ابن عباس، أن رسول الله ρ قال: **(سألت جبريل أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أتمهما وأكملهما)**. وإبراهيم هذا غير معروف إلا بهذا الحديث. وقد رواه البزار عن أحمد بن أبان القرشي، عن

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

سفيان بن عيينة، عن إبراهيم بن أعين، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ρ فذكره.
وقد رواه سنيد عن حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد مرسلاً: (أن رسول الله ρ سأل عن ذلك جبريل، فسأل جبريل إسرافيل، فسأل إسرافيل الرب عز وجل، فقال: أبرهما وأوفاهما). وبنحوه رواه ابن أبي حاتم من حديث يوسف بن سرح مرسلا، ورواه ابن جرير من طريق محمد بن كعب: أن رسول الله ρ سئل أي الأجلين قضى موسى؟ قال: (**أوفاهما وأتمهما**). وقد رواه البزار وابن أبي حاتم من حديث عويد بن أبي عمران الجونى، وهو ضعيف، عن أبيه، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر أن رسول الله ρ سئل أي الأجلين قضى موسى؟ قال: (**أوفاهما وأبرهما**). قال: وإن سئلت أي المرأتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما. وقد رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن لهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن على بن رباح، عن عتبة بن النذر أن رسول الله قال: (**إن موسى آجر نفسه بعفة فرجه وطعام بطنه، فلما وفي الأجل**)، قيل: يا رسول الله، أي الأجلين؟ قال: (**أبرهما وأوفاهما**)، **فلما أراد فراق شعيب سأل امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاها ما ولدت من غنمه من قالب لون من ولد ذلك العام، وكانت غنمه سودًا حسانًا، فانطلق موسى عليه السلام إلى عصا قسمها من طرفها، ثم وضعها في أدنى الحوض، ثم أوردها فسقاها، ووقف موسى عليه السلام بإزاء الحوض، فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة، قال: فأتأمت، وآنثت، ووضعت كلها قوالب ألوان، إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش، ولا ضبوب، ولا عزوز، ولا ثعول، ولا كموش تفوت الكف**)، قال النبي ρ : (**لو اقتحمتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم**). وهى السامرية. قال ابن لهيعة: الفشوش: واسعة السخب، والضبوب: طويلة الضرع تجره، والعزوز: ضيقة السخب، والثعول: الصغيرة الضرع كالحلمتين، والكموش: التي لا يحكم الكف على ضرعها لصغره. وفي صحة رفع هذا الحديث نظر، وقد يكون موقوفًا.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

كما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك، قال:(لما دعا نبي الله موسى عليه السلام صاحبه إلى الأجل الذى كان بينهما، قال له صاحبه: كل شاة ولدت على لونها فلك ولدها، فعمد فوضع خيالاً على الماء، فلما رأت الخيال فزعت، فجالت جولة، فولدن كلهن بلقا، إلا شاة واحدة، فذهب بأولادهن ذلك العام). وهذا إسناد رجاله ثقات والله أعلم. وقد تقدم عن نقل أهل الكتاب عن يعقوب عليه السلام حين فارق خاله لابان أنه أطلق له ما يولد من غنمه بلقا، ففعل نحو ما ذكر عن موسى عليه السلام، فالله أعلم.

وتسير بنا سورة القصص لتكمل القصص: { فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (٣٢)}.. تقدم أن موسى قضى أتم الأجلين وأكملهما، وقد يؤخذ هذا من قوله: { فلما قضى موسى الأجل} وعن مجاهد: أنه أكمل عشرًا وعشرًا بعدها، وقوله: { وسار بأهله} أي من عند صهره ذاهبا، فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم: أنه اشتاق إلى أهله، فقصد زيارتهم ببلاد مصر في صورة مُختف، فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه، قالوا: واتفق ذلك في ليلة مظلمة باردة، وتاهوا في طريقهم، فلم يهتدوا إلى السلوك في الدرب المألوف، وجعل يوري زناده فلا يوري شيئا، واشتد الظلام والبرد، فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد نارًا تأجج في جانب الطور، وهو الجبل الغربي منه عن يمينه { فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا}، وكأنه، والله

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أعلم، رآها دونهم، لأن هذه النار هى نور في الحقيقة، ولا يصلح رؤيتها لكل أحد { لعلى آتيكم منها بخبر} أي لعلي أستعلم من عندها عن الطريق { أو جذوة من النار لعلكم تصطلون} فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق في ليلة باردة ومظلمة، لقوله في الآية الأخرى: { وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً (١٠) }، فدل على وجود الظلام، وكونهم تاهوا عن الطريق، وجمع الكل في سورة النمل في قوله: { إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) }، وقد أتاهم منها بخبر وأي خبر، ووجد عندها هدى وأي هدى، واقتبس منها نورًا وأي نور.

قال الله تعالى: { فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين}، وقال في النمل: { فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين} أي سبحان الله الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد { يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم}، وقال في سورة طه: { إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦)}.. قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف: لما قصد موسى إلى تلك النار التى رآها فانتهى إليها، وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج، وكل ما لتلك النار في اضطرام، وكل ما لخضرة تلك الشجرة في ازدياد، فوقف متعجبًا، وكانت تلك الشجرة في لحف جبل غربي منه عن يمينه، كما قال تعالى: { وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين} وكان موسى في واد اسمه طوى، فكان موسى مستقبل القبلة وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب، فناداه ربه بالواد

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المقدس طوى، فأمر أولاً بخلع نعليه تعظيما وتكريما وتوقيرا لتلك البقعة المباركة، ولاسيما في تلك الليلة المباركة.
وعند أهل الكتاب: أنه وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور، مهابة له وخوفا على بصره، ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلا له: { إني أنا الله رب العالمين}، { إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى} أي أنا رب العالمين الذى لا إله إلا هو، الذي لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له، ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار، وإنما الدار الباقية يوم القيامة، التي لابد من كونها ووجودها { لتجزى كل نفس بما تسعى} أي من خير وشر، وحضه وحثه على العمل لها، ومجانبة من لا يؤمن بها ممن عصى مولاه واتبع هواه، ثم قال له مخاطبًا ومؤانسًا ومبينًا له أنه القادر على كل شيء الذى يقول للشيء كن فيكون: { وما تلك بيمينك يا موسى} أي أما هذه عصاك التى تعرفها منذ صحبتها؟ { قال هى عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولى فيها مآرب أخرى} أي بل هذه عصاي التى أعرفها وأتحققها { قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هى حية تسعى} وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذى يكلمه يقول للشيء كن فيكون، وأنه الفعال بالاختيار.
وعند أهل الكتاب: أنه سأل برهانًا على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر، فقال له الرب عز وجل: ما هذه التى في يدك؟ قال: عصاي، قال: ألقها إلى الأرض { فألقاها فإذا هى حية تسعى} فهرب موسى من قدامها، فأمره الرب عز وجل أن يبسط يده ويأخذها بذنبها، فلما استمكن منها ارتدت عصا في يده، وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: { وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرًا ولم يعقب} أي قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصك، وهي مع ذلك في سرعة حركة الجان، وهو ضرب من الحيات، يقال: الجان والجنان، وهو لطيف ولكن سريع الاضطراب والحركة جدا، فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة، فلما عاينها موسى عليه السلام { ولى مدبرا} أي هاربا منها، لأن

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

طبيعته البشرية تقتضى ذلك { ولم يعقب} أي ولم يلتفت فناداه ربه، قائلا له: { يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين} فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها { قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى} فيقال: إنه هابها شديدًا فوضع يده في كم مدرعته، ثم وضع يده في وسط فمها. وعند أهل الكتاب: أمسك بذنبها، فلما استمكن منها إذا هي قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين، فسبحان القدير العظيم رب المشرقين والمغربين، ثم أمره تعالى بإدخال يده في جيبه ثم أمره بنزعها، فإذا هى تتلألأ كالقمر بياضًا من غير سوء، أي من غير برص ولا بهق، ولهذا قال: { اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب} قيل: معناه إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك، وهذا وإن كان خاصًا به، إلا أن بركة الإيمان به حق بأن ينفع من استعمل ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء.

وقال في سورة النمل: { وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين} أي هاتان الآيتان، وهما العصا واليد، وهما البرهانان المشار إليهما في قوله: { فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قومًا فاسقين} ومع ذلك سبع آيات أخر، فذلك تسع آيات بينات وهى المذكورة في آخر سورة سبحان، حيث يقول تعالى: { ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا} ، وهي المبسوطة في سورة الأعراف في قوله: { وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (١٣٣) }، كما سيأتي الكلام على ذلك في موضعه، وهذه التسع آيات غير العشر الكلمات، فإن التسع من كلمات الله القدرية، والعشر من كلماته الشرعية، وإنما نبهنا على هذا لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة، فظن أن هذه هي هذه.

والمقصود: أن الله سبحانه لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون { قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) }، (القصص). يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام، في جوابه لربه عز وجل، حين أمره بالذهاب إلى عدوه الذى خرج من ديار مصر فرارًا من سطوته وظلمه، حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي، ولهذا { قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون وأخى هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معى ردأ يصدقني إني أخاف أن يكذبون} أي اجعله معى معينًا وردءًا ووزيرًا يساعدني ويعينني على أداء رسالتك إليهم، فإنه أفصح مني لسانًا، وأبلغ بيانًا، قال الله تعالى مجيبا له إلى سؤاله: { سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا} أي برهانا { فلا يصلون إليكما} أي فلا ينالون منكما مكروها بسبب قيامكما، بآياتنا، وقيل: ببركة آياتنا { أنتما ومن اتبعكما الغالبون}.

وقال في سورة طه: { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) }، قيل: إنه أصابه في لسانه لثغة، بسبب تلك الجمرة التى وضعها على لسانه التى كان فرعون أراد اختبار عقله، حين أخذ بلحيته وهو صغير فهم بقتله، فخافت عليه آسية وقالت: إنه طفل، فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه، فهم بأخذ التمرة فصرف الملك يده إلى الجمرة، فأخذها فوضعها على لسانه، فأصابه لثغة بسببها، فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله، ولم يسأل زوالها بالكلية.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال الحسن البصري: والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة، ولهذا بقيت في لسانه بقية، ولهذا قال فرعون قبحه الله فيما زعم إنه يعيب به الكليم:{ ولا يكاد يبين} أي يفصح عن مراده، ويعبر عما في ضميره وفؤاده، ثم قال موسى عليه السلام: { وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣)وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦)}، (طه). أي قد أجبناك إلى جميع ما سألت، وأعطيناك الذى طلبت، وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل حين شفع أن يوحي الله إلى أخيه فأوحى إليه، وهذا جاه عظيم، قال الله تعالى: { وكان عند الله وجيها}، وقال تعالى: { ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيًا}، وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناس وهم سائرون طريق الحج: أي أخ أمن على أخيه؟ فسكت القوم، فقالت عائشة: لمن حول هودجها هو موسى بن عمران، حين شفع في أخيه هارون. فأوحى إليه قال الله تعالى: { ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا}.

قال تعالى في سورة الشعراء: { وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩)}.. تقدير الكلام: فاتياه، فقالا له ذلك، وبلغاه ما أرسلا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وأن يفك أسارى بني إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته، وتركهم يعبدون ربهم حيث شاءوا، ويتفرغون لتوحيده ودعائه والتضرع لديه، فتكبر فرعون في نفسه، وعتا وطغى، ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقص، قائلا له: { ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

سنين} أي أما أنت الذى ربيناه في منزلنا، وأحسنا إليه وأنعمنا عليه مدة من الدهر، وهذا يدل على أن فرعون الذى بعث إليه هو الذي فر منه، خلافًا لما عند أهل الكتاب من أن فرعون الذى فر منه مات في مدة مقامه بمدين، وأن الذى بعث إليه فرعون آخر. وقوله: { وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين} أي وقتلت الرجل القبطي، وفررت منا، وجحدت نعمتنا { قال فعلتها إذا وأنا من الضالين} أي قبل أن يوحى إلى وينزل على { ففرت منكم لما خفتكم فوهب لى ربي حكما وجعلني من المرسلين} ثم قال مجيبًا لفرعون عما امتن به من التربية والإحسان إليه: { وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بني إسرائيل} أي وهذه النعمة التى ذكرت من أنك أحسنت إلى وأنا رجل واحد من بني إسرائيل، تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله واستعبدتهم في أعمالك، وخدمك، وأشغالك { قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) }.

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقاولة، والمحاجة، والمناظرة، وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية، وذلك أن فرعون، قبحه الله، أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى، وزعم أنه الإله: { فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى } وقال: { يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى} وهو في هذه المقالة معاند، يعلم أنه عبد مربوب، وأن الله هو الخالق الباريء المصور الإله الحق، كما قال تعالى: { وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كانت عاقبة المفسدين} ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته والاظهار أنه ما ثم رب أرسله: { وما رب العالمين} لأنهما قالا له: { أنا رسول رب العالمين} فكأنه يقول لهما: ومن رب العالمين الذى تزعمان أنه

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أرسلكما وابتعثكما؟ فأجابه موسى قائلا: { رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين} يعني رب العالمين، خالق هذه السماوات والأرض المشاهدة، وما بينهما من المخلوقات المتجددة، من السحاب والرياح، والمطر والنبات، والحيوانات التي يسلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها، ولابد لها من موجد ومحدث وخالق، وهو الله الذى لا إله إلا هو رب العالمين { قال} أي فرعون، { لمن حوله} من أمرائه، ومرازبته، ووزرائه على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام: { ألا تستمعون} يعني كلامه هذا. { قال} موسى مخاطبًا له ولهم: { ربكم ورب آبائكم الأولين} أي هو الذي خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد، والقرون السالفة في الآباد، فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ولا أبوه ولا أمه، ولم يحدث من غير محدث، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين، وهذان المقامان هما المذكوران في قوله تعالى: { سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق} ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رقدته، ولا نزع عن ضلالته، بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه { قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون *قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون} أي هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة المسير للأفلاك الدائرة، خالق الظلام والضياء، ورب الأرض والسماء، رب الأولين والآخرين، خالق الشمس والقمر والكواكب السائرة، والثوابت الحائرة، خالق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون، وفي فلك يسبحون يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون، فهو تعالى الخالق المالك المتصرف في خلقه بما يشاء، فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه، ولم يبق له قول سوى العناد، عدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته { قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) }،

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما، وهما العصا واليد، وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم، الذى بهر به العقول والأبصار، حين ألقى عصاه { فإذا هى ثعبان مبين} أي عظيم الشكل بديع في الضخامة والهول والمنظر العظيم الفظيع الباهر، حتى قيل: إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه أخذه رهب شديد وخوف عظيم بحيث إنه حصل له إسهال عظيم أكثر من أربعين مرة في يوم، وكان قبل ذلك لا يتبرز في كل أربعين يوما إلا مرة واحدة، فانعكس عليه الحال، وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده في جيبه واستخرجها أخرجها وهي كفلقة القمر تتلألأ نورا بهر الأبصار، فإذا أعادها إلى جيبه رجعت إلى صفتها الأولى، ومع هذا كله لم ينتفع فرعون، لعنه الله، بشيء من ذلك بل استمر على ما هو عليه، وأظهر أن هذا كله سحر، وأراد معارضته بالسحرة، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن في رعيته وتحت قهره ودولته، كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه من إظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملائه وأهل دولته وملته، ولله الحمد والمنة.

وقال تعالى في سورة طه: { إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) }، يقول تعالى مخاطبا لموسى فيما كلمه به ليلة أوحى إليه وأنعم بالنبوة عليه وكلمه منه إليه: قد كنت مشاهدًا لك وأنت في دار فرعون، وأنت تحت كنفي وحفظي ولطفي، ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين بمشيئتى وقدرتي وتدبيري، فلبثت فيها سنين { ثم جئت على قدر} أي مني لذلك فوافق ذلك تقديري وتسييري { واصطنعتك لنفسى} أي

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

اصطفيتك لنفسي برسالتي وبكلامي { اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا في ذكرى} يعني ولا تفترا في ذكري، إذ قدمتما عليه، ووفدتما إليه، فإن ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته، وإهداء النصيحة إليه، وإقامة الحجة عليه، وقد جاء في بعض الأحاديث: **(يقول الله تعالى: إن عبدي كل عبدي الذى يذكرني وهو ملاق قرنه)**. وقال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا} الآية، ثم قال تعالى: { اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى} وهذا من حلمه تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه، مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره، وهو إذ ذاك أردى خلقه، وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان، ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن يدعواه إليه بالتي هي أحسن برفق ولين، ويعاملاه معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى، كما قال لرسوله: { ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن}، وقال تعالى: { ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم} الآية.

قال الحسن البصري: { فقولا له قولا لينا} أعذرا إليه قولا له: إن لك ربا ولك معادًا، وإن بين يديك جنة ونارًا. وقال وهب بن منبه: قولا له: إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة. قال يزيد الرقاشي عند هذه الآية: يا من يتحبب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه { قالا ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى} وذلك أن فرعون كان جبارًا عنيدًا وشيطانًا مريدًا له سلطان في بلاد مصر طويل عريض، وجاه وجنود وعساكر وسطوة، فهاباه من حيث البشرية، وخافا أن يسطو عليهما في بادئ الأمر، فثبتهما تعالى وهو العلي الأعلى، فقال: { لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى}، كما قال في الآية الأخرى: { إنا معكم مستمعون}، { فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨) }، يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

إلى فرعون، فيدعواه إلى الله تعالى، أن يعبده وحده لا شريك له، وأن يرسل معهم بني إسرائيل، ويطلقهم من أسره وقهره، ولا يعذبهم { قد جئناك بآية من ربك} وهو البرهان العظيم في العصى واليد { والسلام على من اتبع الهدى} تقيد مفيد بليغ عظيم، ثم تهدداه وتوعداه على التكذيب فقالا: { إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى} أي كذب بالحق بقلبه وتولى عن العمل بقالبه.

وقد ذكر السدي: وغيره أنه لما قدم من بلاد مدين دخل على أمه وأخيه هارون وهما يتعشيان من طعام فيه الطفشيل، وهو اللفت، فأكل معهما ثم قال: يا هارون، إن الله أمرني وأمرك أن ندعو فرعون إلى عبادته فقم معي، فقاما يقصدان باب فرعون، فإذا هو مغلق، فقال موسى للبوابين والحجبة: أعلموه أن رسول الله بالباب فجعلوا يسخرون منه ويستهزئون به.

وقد زعم بعضهم أنه لم يؤذن لهما عليه إلا بعد حين طويل. وقال محمد بن إسحاق: أذن لهما بعد سنتين، لأنه لم يك أحد يتجاسر على الاستئذان لهما، فالله أعلم. ويقال: إن موسى تقدم إلى الباب فطرقه بعصاه، فانزعج فرعون وأمر بإحضارهما فوقفا بين يديه فدعواه إلى الله عز وجل كما أمرهما.

وعند أهل الكتاب: أن الله قال لموسى عليه السلام: إن هارون اللاوي، يعني من نسل لاوي بن يعقوب، سيخرج ويتلقاك، وأمره أن يأخذ معه مشايخ بني إسرائيل إلى فرعون، وأمره أن يظهر ما أتاه من الآيات، وقال له: إني سأقسي قلبه فلا يرسل الشعب، وأكثر آياتي وأعاجيبي بأرض مصر، وأوحى الله إلى هارون أن يخرج إلى أخيه يتلقاه بالبرية عند جبل حوريب، فلما تلقاه أخبره موسى بما أمره به ربه، فلما دخلا مصر جمعا شيوخ بني إسرائيل، وذهبا إلى فرعون، فلما بلغاه رسالة الله، قال: من هو الله، لا أعرفه؟ ولا أرسل بني إسرائيل، وقال الله مخبرًا عن فرعون: { قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥) }، (طه).

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون إنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلا: { فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى} أي هو الذي خلق الخلق وقدر لهم أعمالا وأرزاقا وآجالا، وكتب ذلك عنده في كتابه اللوح المحفوظ، ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدره له، فطابق عمله فيهم على الوجه الذى قدره، وعلمه لكمال علمه وقدرته وقدره، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الأعلى: { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣)}، أي قدر قدرًا وهدى الخلائق إليه { قال فما بال القرون الأولى} يقول فرعون لموسى: فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادي الخلائق لما قدره، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه، فلم عبد الأولون غيره وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت، فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى؟ { قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى} أي هم وإن عبدوا غيره فليس ذلك بحجة لك، ولا يدل على خلاف ما أقول، لأنهم جهلة مثلك كل شيء فعلوه مسطر عليهم في الزبر من صغير وكبير، وسيجزيهم على ذلك ربي عز وجل، ولا يظلم أحدًا مثقال ذرة، لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده في كتاب لا يضل عنه شيء ولا ينسى ربي شيئا، ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء وجعله الأرض مهادًا، والسماء سقفًا محفوظا، وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابهم وأنعامهم، كما قال: { كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولى النهى} أي لذوي العقول الصحيحة المستقيمة والفطر القويمة غير السقيمة، فهو تعالى الخالق الرزاق، وكما قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)}، (البقرة). ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر واهتزازها بإخراج نباتها فيه، نبه به على المعاد فقال: { منها} أي من الأرض { خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى} كما قال تعالى: { كما بدأكم تعودون}.

وقال تعالى: { وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم}، ثم قال تعالى: { ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبي قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى}. يخبر تعالى عن شقاء فرعون، وكثرة جهله، وقلة عقله، في تكذيبه بآيات الله، واستكباره عن اتباعها وقوله لموسى: إن هذا الذى جئت به سحر، ونحن نعارضك بمثله، ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم، ومكان معلوم، وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام، أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس، ولهذا قال: { موعدكم يوم الزينة} وكان يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم { وأن يحشر الناس ضحى} أي من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس، فيكون الحق أظهر وأجلى، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً في ظلام كيما يروج عليهم محالا وباطلا، بل طلب أن يكون نهارًا جهرة، لأنه على بصيرة من ربه، ويقين أن الله سيظهر كلمته ودينه، وإن رغمت أنوف القبط.

قال الله تعالى: { فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (٦٤) }، (طه). يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة، وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

مملوءة سحرة فضلاء في فنهم غاية، فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان، فاجتمع منهم خلق كثير وجم غفير، فقيل: كانوا ثمانين ألفًا، قاله محمد بن كعب. وقيل: سبعين ألفا، قاله القاسم بن أبي بردة. وقال السدي: بضعة وثلاثين ألفا. وعن أبي أمامة: تسعة عشر ألفا. وقال محمد بن إسحاق: خمسة عشر ألفا. وقال كعب الأحبار: كانوا إثني عشر ألفا. وروي ابن أبي حاتم عن ابن عباس: كانوا سبعين رجلا، وروي عنه أيضا: أنهم كانوا أربعين غلامًا من بني إسرائيل، أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العرفاء فيتعلموا السحر، ولهذا قالوا: { وما أكرهتنا عليه من السحر}، وفي هذا نظر.

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم، وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم، فخرجوا وهم يقولون: { لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين} وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم وزجرهم عن تعاطي السحر الباطل الذى فيه معارضة لآيات الله وحججه، فقال: { وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢) } قيل: معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم، فقائل يقول: هذا كلام نبي وليس بساحر، وقائل منهم يقول: بل هو ساحر، فالله أعلم، وأسروا التناجي بهذا وغيره: { قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما} يقولون: إن هذا وأخاه هارون ساحران عليمان مطبقان متقنان لهذه الصناعة، ومرادهما أن يجتمع الناس عليهما ويصولا علىالملك وحاشيته ويستأصلاكم عن آخركم ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة { فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى} وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة، والسحر والبهتان، وهيهات كذبت والله الظنون، وأخطأت الآراء أني يعارض البهتان والسحر والهذيان، خوارق العادات التى أجراها الديان على يدي عبده الكليم ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان الذى يبهر الأبصار وتحار فيه العقول والأذهان،

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقولهم: { فأجمعوا كيدكم} أي جميع ما عندكم { ثم ائتوا صفا} أي جملة واحدة، ثم حضوا بعضهم بعضا على التقدم في هذا المقام، لأن فرعون كان قد وعدهم ومناهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا { قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) }، (طه).

لما اصطف السحرة ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم قالوا له: إما أن تلقي قبلنا، وإما أن نلقي قبلك { قال بل ألقوا} أنتم وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصي، فأودعوها الزئبق، وغيره من الآلات، التى تضطرب بسببها تلك الحبال والعصى، اضطرابًا يخيل للرائى أنها تسعى باختيارها، وإنما تتحرك بسبب ذلك، فعند ذلك سحروا أعين الناس، واسترهبوهم وألقوا حبالهم وعصيهم، وهم يقولون: { بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون} قال الله تعالى: { فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم}، وقال تعالى: { فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة موسى} أي خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم، ومحالهم قبل أن يلقي ما في يده، فإنه لا يضع شيئا قبل أن يؤمر فأوحى الله إليه في الساعة الراهنة { قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) } فعند ذلك ألقى موسى عصاه، وقال: { فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) }، وقال تعالى: { وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢)}، (الأعراف)، وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها صارت حية عظيمة ذات قوائم، فيما ذكره غير واحد من علماء السلف، وعنق عظيم، وشكل هائل مزعج، بحيث أن الناس انحازوا منها وهربوا سراعا وتأخروا عن مكانها، وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعصي فجعلت تلقفه واحدا واحدا في أسرع ما يكون من الحركة، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها، وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم في أمرهم، واطلعوا على أمر لم يكن في خلدهم ولا بالهم، ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم، فعند ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر، ولا شعوذة، ولا محال، ولا خيال، ولا زور، ولا بهتان، ولا ضلال، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق الذى ابتعث هذا المؤيد به بالحق، وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة، وأنارها بما خلق فيها من الهدى، وأزاح عنها القسوة، وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين، وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى: { آمنا برب موسى وهرون}، كما قال تعالى في سورة طه: { فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦)} .

قال سعيد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبي بردة والأوزاعي وغيرهم: لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تهيأ لهم، وتزخرف لقدومهم، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده. وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا،

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وأشهروا ذكروا موسى وهارون في الناس على هذه الصفة الجميلة، أفزعه ذلك ورأى أمرًا أبهره وأعمى بصيرته وبصره، وكان فيه كيد ومكر وخداع وصنعة بليغة في الصد عن سبيل الله، فقال مخاطبا للسحرة بحضرة الناس: { آمنتم له قبل أن آذن لكم} أي هلا شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتي، ثم تهدد وتوعد وأبرق وارعد وكذب فأبعد قائلا: { إنه لكبيركم الذى علمكم السحر}، وقال في الآية الأخرى: { إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون} وهذا الذى قاله من البهتان يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان، بل لا يروج مثله على الصبيان، فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يوما من الدهر، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر؟ ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم، حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم واجتباهم من كل فج عميق، وواد سحيق، ومن حواضر بلاد مصر، والأطراف ومن المدن والأرياف.

قال الله تعالى في سورة الأعراف: { ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) } .

وقال تعالى في سورة يونس: { ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١)

وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)} .

وقال تعالى في سورة الشعراء:{ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)}.

والمقصود: أن فرعون كذب وافترى، وكفر غاية الكفر في قوله: { إنه لكبيركم الذى علمكم السحر} وأتى ببهتان يعلمه العالمون، بل العالمون في قوله: { إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون}، وقوله: { لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف } يعني يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، وعكسه { ولأصلبنكم أجمعين} أي ليجعلهم مثلة ونكالاً، لئلا يقتدي بهم أحد من رعيته، وأهل ملته، ولهذا قال: { ولأصلبنكم في جذوع النخل} أي على جذوع النخل، لأنها أعلى وأشهر { ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى} يعني في الدنيا { قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات} أي لن نطيعك ونترك ما وقر في قلوبنا من البينات والدلائل القاطعات { والذى فطرنا} قيل: معطوف: وقيل: قسم { فاقض ما أنت قاض} أي فافعل ما قدرت عليه { إنما تقضى هذه الحياة الدنيا} أي إنما حكمك علينا في هذه الحياة الدنيا، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة، صرنا إلى حكم الذى أسلمنا له واتبعنا رسله { إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى} أي وثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب والترغيب { وأبقى} أي وأدوم من هذه الدار الفانية، وفي الآية الأخرى: { قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا} أي ما اجترمناه من المآثم والمحارم { أن كنا أول المؤمنين} أي من القبط بموسى وهارون عليهما السلام، وقالوا له أيضا: { وما تنقم منا إلا أن آمنا

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بآيات ربنا لما جاءتنا} أي ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا، واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا { ربنا أفرغ علينا صبرا} أي ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد والسلطان الشديد، بل الشيطان المريد { وتوفنا مسلمين} وقالوا أيضا يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم: { إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى} يقولون له: فإياك أن تكون منهم، فكان منهم { ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى} أي المنازل العالية { جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى} فاحرص أن تكون منهم، فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التى لا تغالب ولا تمانع، وحكم العلي العظيم بأن فرعون، لعنه الله، من أهل الجحيم، ليباشر العذاب الأليم، يصب من فوق رأسه الحميم، ويقال له على وجه التقريع والتوبيخ وهو المقبوح المنبوح والذميم اللئيم: { ذق إنك أنت العزيز الكريم}.

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون، لعنه الله، صلبهم وعذبهم رضي الله عنهم. قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير: كانوا من أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة. ويؤيد هذا قولهم: { ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين}.

ولما وقع ما وقع من الأمر العظيم، وهو الغلب الذى غلبته القبط في ذلك الموقف الهائل، وأسلم السحرة الذين استنصروا ربهم، لم يزدهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا وبعدًا عن الحق، قال الله تعالى بعد قصص ما تقدم في سورة الأعراف: { وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) } .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

يخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون، وهم الأمراء والكبراء، أنهم حرضوا ملكهم فرعون على أذية نبي الله موسى عليه السلام، ومقابلته بدل التصديق بما جاء به بالكفر والرد والأذى، قالوا: { أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك} يعنون، قبحهم الله، أن دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والنهى عن عبادة ما سواه، فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط، لعنهم الله، وقرأ بعضهم: (ويذرك وإلاهتك) أي وعبادتك، ويحتمل شيئين أحدهما: ويذر دينك، وتقويه القراءة الأخرى، والثاني: ويذر أن يعبدك، فإنه كان يزعم أنه إله، لعنه الله { قال سنقتل أبناءهم ونستحى نساءهم} أي لئلا يكثر مقاتلتهم { وإنا فوقهم قاهرون} أي غالبون { وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين} أي إذا هموا هم بأذيتكم والفتك بكم، فاستعينوا أنتم بربكم، واصبروا على بليتكم { إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين} أي فكونوا أنتم المتقين لتكون لكم العاقبة، كما قال في الآية الأخرى من سورة يونس: { وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦)}، وقولهم: { قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا} أي قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك، وبعد مجيئك إلينا { قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون}.

وقال الله تعالى في سورة حم المؤمن: { ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب} وكان فرعون الملك، وهامان الوزير، وكان قارون إسرائيليا من قوم موسى، إلا أنه كان على دين فرعون وملئه، وكان ذا مال جزيل جدًا، كما ستأتي قصته فيما بعد إن شاء الله تعالى { فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال} وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى إنما

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

كان على وجه الإهانة والإذلال والتقليل لملأ بني إسرائيل، لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها، ويصولون على القبط بسببها، وكانت القبط منهم يحذرون، فلم ينفعهم ذلك، ولم يرد عنهم قدر الذى يقول للشيء كن فيكون { وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد} ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم: صار فرعون مذكرا، وهذا منه فإن فرعون في زعمه يخاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام { وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب} أي عذت بالله ولجأت إليه بجنابه من أن يسطو فرعون وغيره عليّ بسوء، وقوله: { من كل متكبر} أي جبار عنيد، لا يرعوي ولا ينتهي، ولا يخاف عذاب الله وعقابه، لأنه لا يعتقد معادا ولا جزاء، ولهذا قال في سورة غافر: { وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)}، وهذا الرجل هو ابن عم فرعون، وكان يكتم إيمانه من قومه خوفا منهم على نفسه، وزعم بعض الناس أنه كان إسرائيليا، وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظا ومعنى، والله أعلم.

قال ابن جريج: قال ابن عباس: لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا، والذى جاء من أقصى المدينة، وامرأة فرعون. رواه ابن أبي حاتم.

قال الدارقطني: لا يعرف من اسمه شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون، حكاه السهيلي. وفي تاريخ الطبراني: أن اسمه خير. فالله أعلم.

والمقصود: أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه فلما هم فرعون، لعنه الله، بقتل موسى عليه السلام، وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه، خاف هذا

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المؤمن على موسى، فتلطف في رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب، فقال على وجه المشورة والرأي. وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ρ أنه قال: **(أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر)**. وهذا من أعلى مراتب هذا المقام، فإن فرعون لا أشد جورًا منه، وهذا الكلام لا أعدل منه، لأن فيه عصمة نبي، ويحتمل أنه كاشفهم بإظهار إيمانه، وصرح لهم بما كان يكتمه، والأول أظهر، والله أعلم. قال: { أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله} أي من أجل أنه قال ربي الله، فمثل هذا لا يقابل بهذا بل بالإكرام والاحترام والموادعة وترك الانتقام، يعني لأنه: { قد جاءكم بالبينات من ربكم} أي بالخوارق التى دلت على صدقة فيما جاء به عمن أرسله، فهذا إن وادعتموه كنتم في سلامة لأنه: { إن يك كاذبا فعليه كذبه} ولا يضركم ذلك { وإن يك صادقا} وقد تعرضتم له { يصبكم بعض الذى يعدكم} أي وأنتم تشققون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به، فكيف بكم إن حل جميعه عليكم.

وهذا الكلام في هذا المقام من أعلى مقامات التلطف والاحتراز والعقل التام، وقوله: { يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض} يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز، فإنه ما تعرضت الدول للدين إلا سلبوا ملكهم، وذلوا بعد عزهم، وكذا وقع لآل فرعون، ما زالوا في شك وريب ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به، حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملاك والدور والقصور والنعمة والحبور، ثم حولوا إلى البحر مهانين، ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السافلين، ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق البار الراشد التابع للحق الناصح لقومه الكامل العقل: { يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض} أي عالين على الناس حاكمين عليهم { فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا} أي لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدة والقوة والشدة لما نفعنا ذلك، ولا رد عنا بأس مالك الممالك { قال فرعون} أي في جواب هذا كله { ما أريكم إلا ما أرى} أي ما أقول لكم إلا ما عندي { وما أهديكم إلا سبيل

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الرشاد} وكذب في كل من هذين القولين، وهاتين المقدمتين، فإنه قد كان يتحقق في باطنه وفي نفسه أن هذا الذي جاء به موسى من عند الله لا محالة، وإنما كان يظهر خلافه بغيا وعدوانا وعتوا وكفرانا.

قال الله تعالىفي سورة الإسراء إخبارًا عن سيدنا موسى عليه السلام: { قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً (١٠٤) }.. وقال تعالى في سورة النمل: { فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) }، وأما قوله: { وما أهديكم إلا سبيل الرشاد} فقد كذب أيضًا فإنه لم يكن على رشاد من الأمر، بل كان على سفه وضلال وخبل وخيال، فكان أولا ممن يعبد الأصنام والأمثال، ثم دعا قومه الجهلة الضلال إلى أن اتبعوه وطاوعوه وصدقوه فيما زعم من الكفر المحال في دعواه أنه رب تعالى الله ذو الجلال، قال الله تعالى في سورة الزخرف: { وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ (٥٦)}، وقال تعالى: { فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٢٦)}، (النازعات).. وقال تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٩٦) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)}، (هود).

والمقصود بيان كذب فرعون في قوله الذي جاء في سورة غافر: { يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)}.. يحذرهم ولي الله إن كذبوا برسول الله موسى، أن يحل بهم ما حل بالأمم من قبلهم من النقمات والمثلات، مما تواتر عندهم وعند غيرهم ما حل بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم، إلى زمانهم ذلك، مما أقام به الحجج على أهل الأرض قاطبة في صدق ما جاءت به الأنبياء، لما أنزل من النقمة بمكذبيهم من الأعداء، وما أنجى الله من اتبعهم من الأولياء، وخوفهم يوم القيامة وهو يوم التناد، أي حين ينادي الناس بعضهم بعضا حين يولون إن قدروا على ذلك، ولا إلى ذلك سبيل { يقول الإنسان يومئذ أين المفر (١٠) كلا لا وزر (١١) إلى ربك يومئذ المستقر(١٢)}، (القيامة). وقال تعالى { يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان (٣٣) فبأي آلاء ربكما تكذبان(٣٤) يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران(٣٥) فبأي آلاء ربكما تكذبان(٣٦)}، (الرحمن). وقرأ بعضهم: (يوم التنادّ) بتشديد الدال، أي يوم الفرار، ويحتمل أن يكون يوم القيامة، ويحتمل أن يكون يوم يحل الله بهم

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

البأس فيودون الفرار، ولات حين مناص { فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣)}، (الأنبياء)، ثم أخبرهم عن نبوة يوسف في بلاد مصر، وما كان منه من الإحسان إلى الخلق في دنياهم وأخراهم، وهذا من سلالته وذريته، ويدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته، وأن لا يشركوا به أحدًا من بريته، وأخبر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان، أي من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل، ولهذا قال: { ...فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا...} أي وكذبتم في هذا، ولهذا قال: { ...كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب(٣٤) الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم....} أي يردون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده، بلا حجة ولا دليل عندهم من الله، فإن هذا أمر يمقته الله غاية المقت، أي يبغض من تلبس به من الناس ومن اتصف به من الخلق {... كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار (٣٥) }، قرئ بالإضافة وبالنعت وكلاهما متلازم، أي هكذا إذا خالفت القلوب الحق، ولا تخالفه إلا بلا برهان، فإن الله يطبع عليها: أي يختم عليها { وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧) }، (غافر). كذب فرعون موسى عليه السلام في دعواه أن الله أرسله، وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه، في قوله لهم { ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا}، وقال هاهنا: { لعلى أبلغ الأسباب أسباب السماوات} أي طرقها ومسالكها { فأطلع إلى إله موسى وإني لا أظنه كاذبا} ويحتمل هذا معنيين: أحدهما: { وإني لأظنه كاذبا} في قوله: إن للعالم ربا غيرى. والثاني: في دعواه أن الله أرسله. والأول أشبه بظاهر حال فرعون، فإنه كان ينكر ظاهر إثبات الصانع، والثاني

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أقرب إلى اللفظ، حيث قال: { فاطلع إلى إله موسى} أي فأسأله هل أرسله أم لا؟ { وإني لأظنه كاذبا} أي في دعواه ذلك، وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام، وإن يحثهم على تكذيبه، قال الله تعالى: { وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل} وقرئ: { وصد عن السبيل} { وما كيد فرعون إلا في تباب} قال ابن عباس ومجاهد يقول: إلا في خسار، أي باطل لا يحصل له شيء من مقصوده الذي رامه، فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى نيل السماء أبدًا، أعني السماء الدنيا، فكيف بما بعدها من السماوات العلى، وما فوق ذلك من الارتفاع الذى لا يعلمه إلا الله عز وجل، وذكر غير واحد من المفسرين: أن هذا الصرح وهو القصر الذى بناه وزيره هامان له لم ير بناء أعلى منه، وإن كان مبنيًا من الآجر المشوى بالنار، ولهذا قال: { فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا}.

وعند أهل الكتاب: أن بني إسرائيل كانوا يسخرون في ضرب اللبن، وكان مما حملوا من التكاليف الفرعونية أنهم لا يساعدون على شيء مما يحتاجون إليه فيه، بل كانوا هم الذين يجمعون ترابه وتبنه وماءه، ويطلب منهم كل يوم قسط معين، إن لم يفعلوه وإلا ضربوا وأهينوا غاية الإهانة وأوذوا غاية الأذية، ولهذا قالوا لموسى: { أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون} فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط، وكذلك وقع وهذا من دلائل النبوة، ولنرجع إلى نصيحة المؤمن وموعظته واحتجاجه، قال الله تعالى في سورة غافر: { وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)}، يدعوهم رضي الله عنه، إلى طريق الرشاد والحق، وهى متابعة نبي الله موسى وتصديقه فيما جاء به من ربه، ثم زهدهم في الدنيا الدنية

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الفانية المنقضية لا محالة، ورغبهم في طلب الثواب عند الله الذى لا يضيع عمل عامل لديه، القدير الذى ملكوت كل شيء بيديه، الذى يعطي على القليل كثيرًا، ومن عدله لا يجازي على السيئة إلا مثلها، وأخبرهم أن الآخرة هى دار القرار التى من وافاها مؤمنا قد عمل الصالحات، فلهم الجنات العاليات، والغرف الآمنات، والخيرات الكثيرة الفائقات، والأرزاق الدائمة التى لا تبيد، والخير الذى كل ما لهم منه في مزيد.

ثم شرع في إبطال ما هم عليه وتخويفهم مما يصيرون إليه فقال تبارك وتعالى: { وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)}، (غافر). كان يدعوهم إلى عبادة رب السماوات والأرض الذى يقول للشيء كن فيكون، وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون، ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار: { ويا قوم ما لى أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار} ثم بين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان، وأنها لا تملك من نفع ولا إضرار، فقال: { لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار} أي لا تملك تصرفًا ولا حكمًا في هذه الدار، فكيف تملكه يوم القرار، وأما الله عز وجل فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجار، وهو الذى أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم، فيدخل طائعهم الجنة، وعاصيهم إلى النار.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثم توعدهم إن هم استمروا على العناد بقوله: { فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد}، قال الله: { فوقاه الله سيئات ما مكروا} أي بإنكاره سلم مما أصابهم من العقوبة على كفرهم بالله، ومكرهم في صدهم عن سبيل الله، مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحالات، التى ألبسوا بها على عوامهم وطغامهم، ولهذا قال: { وحاق} أي أحاط { بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدوا وعشيا} أي تعرض أرواحهم في برزخهم صباحًا ومساءً على النار { ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب} وقد تكلمنا على دلالة هذه الآية على عذاب القبر في التفسير، ولله الحمد.

والمقصود: أن الله تعالى لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم، وإرسال الرسول إليهم، وإزاحة الشبه عنهم، وأخذ الحجة عليهم منهم، فبالترهيب تارة، والترغيب أخرى، كما قال تعالى في سورة الأعراف: { وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (١٣٣) } .

يخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون، وهم قومه من القبط، بالسنين، وهي أعوام الجدب التى لا يستغل فيها زرع، ولا ينتفع بضرع، وقوله: { ونقص من الثمرات} وهي قلة الثمار من الأشجار { لعلهم يذكرون} أي فلم ينتفعوا ولم يرعووا، بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم { فإذا جاءتهم الحسنة} والخصب ونحوه { قالوا لنا هذه} أي هذا الذي نستحقه، وهذا الذي يليق بنا { وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه} أي يقولون: هذا بشؤمهم أصابنا هذا، ولا يقولون في الأول: أنه ببركتهم وحسن مجاورتهم، ولكن قلوبهم منكرة مستكبرة نافرة، عن الحق إذا جاء الشر أسندوه إليه، وإن رأوا خيرًا

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ادعوه لأنفسهم، قال الله تعالى: { ألا إنما طائرهم عند الله} أي الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء { ولكن أكثرهم لا يعلمون وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين} أي مهما جئتنا به من الآيات، وهي الخوارق للعادات، فلسنا نؤمن بك، ولا نتبعك ولا نطيعك، ولو جئتنا بكل آية، وهكذا أخبر الله عنهم في قوله: { إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم}، قال الله تعالى: { فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين}.

أما الطوفان: فعن ابن عباس: هو كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار، وبه قال سعيد ابن جبير وقتادة والسدي والضحاك. وعن ابن عباس وعطاء: هو كثرة الموت. وقال مجاهد: الطوفان الماء، والطاعون على كل حال. وعن ابن عباس: أمر طاف بهم.

وقد روى ابن جرير وابن مردويه من طريق يحيى بن يمان، عن المنهال بن خليفة، عن الحجاج، عن الحكم بن مينا، عن عائشة، عن النبي ρ : **(الطوفان الموت)**، وهو غريب. وأما الجراد فمعروف. وقد روى أبو داود عن أبي عثمان، عن سلمان الفارسى، :قال سئل رسول الله عن الجراد؟ فقال: **(أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه)**. وترك النبي ρ أكله إنما هو على وجه التقذر له، كما ترك أكل الضب وتنزه عن أكل البصل والثوم والكراث، لما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى، قال: غزونا مع رسول الله ρ سبع غزوات نأكل الجراد. وقد تكلم على ما ورد فيه من الأحاديث والآثار في كتب الفقه والحديث والتفسير. والمقصود: أنه استاق خضراءهم، فلم يترك لهم زرعا ولا ثمارا ولا سبدا ولا لبدا، وأما القمل: فعن ابن عباس: هو السوس الذى يخرج من الحنطة. وعنه: أنه الجراد الصغار الذى لا أجنحة له. وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة. وقال سعيد بن جبير والحسن: هو دواب سود صغار. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي البراغيث. وحكى ابن جرير عن

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أهل العربية: أنها الحمنان، وهو صغار القردان، فرق القمقامة، فدخل معهم البيوت والفرش فلم يقر لهم قرار، ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش. وفسره عطاء بن السائب بهذا القمل المعروف. وقرأها الحسن البصري كذلك بالتخفيف. وأما الضفادع: فمعروفة، لبستهم حتى كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم، حتى إن أحدهم إذا فتح فمه لطعام أو شراب سقطت في فيه ضفدعة من تلك الضفادع. وأما الدم: فكان قد مزج ماؤهم كله به، فلا يستقون من النيل شيئًا إلا وجدوه دمًا عبيطا، ولا من نهر ولا بئر ولا شيء إلا كان دما في الساعة الراهنة. هذا كله لم ينل بني إسرائيل من ذلك شيء بالكلية، وهذا من تمام المعجزة الباهرة والحجة القاطعة، أن هذا كله يحصل لهم من فعل موسى عليه السلام، فينالهم عن آخرهم ولا يحصل هذا لأحد من بني إسرائيل وفي هذا أدل دليل.

قال محمد بن إسحاق: فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوبًا مفلولاً، ثم أبي إلا الإقامة على الكفر، والتمادي في الشر، وتابع الله عليه بالآيات فأخذه بالسنين، فأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات، فأرسل الطوفان وهو الماء، ففاض على وجه الأرض، ثم ركد لا يقدرون على أن يخرجوا، ولا أن يعملوا شيئا حتى جهدوا جوعًا، فلما بلغهم ذلك: { قالوا يا موسى أدع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل} فدعا موسى ربه فكشفه عنهم، فلما لم يفوا له بشيء فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل الشجر، فيما بلغنى، حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم القمل، فذكر لى أن موسى عليه السلام أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه، فمشى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها، فانثال عليهم قملاً حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا، أرسل الله عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية،

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فلم يكشف أحد ثوبًا ولا طعامًا، إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك، قالوا له مثل ما قالوا، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يفوا بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياه آل فرعون دمًا لا يستقون من بئر ولا نهر يغترفون من إناء إلا عاد دمًا عبيطًا. وقال زيد بن أسلم: المراد بالدم: الرعاف. رواه ابن أبي حاتم.

قال الله تعالى في الأعراف: { وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦)} .

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل والاستكبار عن اتباع آيات الله، وتصديق رسوله مع ما أيد به من الآيات العظيمة الباهرة، والحجج البليغة القاهرة، التى أراهم الله إياها عيانا، وجعلها عليهم دليلا وبرهانا، وكلما شاهدوا آية وعاينوها وجهدهم وأضنكهم، حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به، وليرسلن معه من هو من حزبه، فكلما رفعت عنهم تلك الآية، عادوا إلى شر مما كانوا عليه، وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا إليه، فيرسل الله عليهم آية أخرى، هي أشد مما كانت قبلها وأقوى، فيقولون فيكذبون ويعدون ولا يفون: { لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك، ولنرسلن معك بني إسرائيل} فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل، ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل، هذا والعظيم الحليم القدير ينظرهم، ولا يعجل عليهم، ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم، ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم والإنذار إليهم أخذ عزيز مقتدر، فجعلهم عبرة ونكالاً وسلفًا لمن أشبههم من الكافرين، ومثلاً لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين.

كما قال تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين في سورة الزخرف: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠) وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ (٥٦)}.

يذكر تعالى إرساله عبده الكليم الكريم، إلى فرعون الخسيس اللئيم، وأنه تعالى أيد رسوله بآيات بينات واضحات، تستحق أن تقابل بالتعظيم والتصديق، وأن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر، ويرجعوا إلى الحق والصراط المستقيم، فإذا هم منها يضحكون، وبها يستهزئون، وعن سبيل الله يصدون، وعن الحق ينصرفون، فأرسل الله عليهم الآيات تترى يتبع بعضها بعضا، وكل آية أكبر من التي تتلوها، لأن التوكيد أبلغ مما قبله { وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون (٤٨) وقالوا يا أيها الساحر أدع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون(٤٩)} لم يكن لفظ الساحر في زمنهم نقصًا ولا عيبًا، لأن علماءهم في ذلك الوقت هم السحرة، ولهذا خاطبوه به في حال احتياجهم إليه وضراعتهم لديه، قال الله تعالى: { فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون} ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه وعظمة بلده وحسنها وتخرق الأنهار فيها، وهي الخلجانات التى يكسرونها أمام زيادة النيل، ثم تبجح بنفسه وحليته وأخذ يتنقص رسول الله موسى عليه السلام ويزدريه بكونه { لا يكاد يبين} يعني كلامه بسبب ما كان في لسانه من بقية تلك اللثغة التي هي شرف له وكمال وجمال، ولم تكن مانعة له أن كلمه الله تعالى وأوحى إليه، وأنزل بعد ذلك التوراة عليه، وتنقصه فرعون، لعنه الله، بكونه لا أساور في بدنه ولا زينة عليه، وإنما ذلك من حلية النساء لا يليق

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بشهامة الرجال، فكيف بالرسل الذين هم أكمل عقلاً، وأتم معرفة، وأعلى همة، وأزهد في الدنيا، وأعلم بما أعد الله لأوليائه في الأخرى، وقوله: { أو جاء معه الملائكة مقترنين} لا يحتاج الأمر إلى ذلك إن كان المراد أن تعظمه الملائكة، فالملائكة يعظمون ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير، كما جاء في الحديث: **(إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع)**. فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكليم عليه الصلاة والتسليم والتكريم، وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة، فقد أيد من المعجزات بما يدل قطعا لذوى الألباب، ولمن قصد إلى الحق والصواب، ويعمى عما جاء به من البينات والحجج الواضحات، من نظر إلى القشور وترك لب اللباب، وطبع على قلبه رب الأرباب، وختم عليه بما فيه من الشك والارتياب، كما هو حال فرعون القبطي العمي الكذاب، قال الله تعالى: { فاستخف قومه فأطاعوه} أي استخف عقولهم ودرجهم من حال إلى حال إلى أن صدقوه في دعواه الربوبية، لعنه الله، وقبحهم { إنهم كانوا قوما فاسقين فلما آسفونا} أي أغضبونا { انتقمنا منهم} أي بالغرق والإهانة وسلب العز، والتبدل بالذل، وبالعذاب بعد النعمة، والهوان بعد الرفاهية، والنار بعد طيب العيش، عياذا بالله العظيم، وسلطانه القديم من ذلك { فجعلناهم سلفا} أي لمن اتبعهم في الصفات { ومثلا} أي لمن اتعظ بهم وخاف من وبيل مصرعهم، ممن بلغه جليه خبرهم، وما كان من أمرهم.

كما قال الله تعالى في سورة القصص: { فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

يُرْجَعُونَ(٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) }، (القصص). يخبر تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق، وادعى ملكهم الباطل، ووافقوه عليه، وأطاعوه فيه، اشتد غضب الرب القدير العزيز الذى لا يغالب ولا يمانع عليهم، فانتقم منهم أشد الانتقام، وأغرقه هو وجنوده في صبيحة واحدة، فلم يفلت منهم أحد، ولم يبق منهم ديار، بل كان قد غرق، فدخل النار، وأتبعوا في هذه الدار لعنة بين العالمين، ويوم القيامة بئس الرفد المرفود، ويوم القيامة هم من المقبوحين.

هلاك فرعون وجنوده

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم متابعة لملكهم فرعون، ومخالفة لنبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام، وأقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحير العقول، وهم مع ذلك لا يرعوون ولا ينتهون ولا ينزعون ولا يرجعون ولم يؤمن منهم إلا القليل، قيل: ثلاثة وهم امرأة فرعون، ولا علم لأهل الكتاب بخبرها، ومؤمن آل فرعون الذى تقدم حكاية موعظته ومشورته وحجته عليهم، والرجل الناصح الذى جاء يسعى من أقصى المدينة، فقال: { يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين } قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم عنه. ومراده: غير السحرة فإنهم كانوا من القبط، وقيل: بل آمن طائفة من القبط من قوم فرعون والسحرة كلهم، وجميع شعب بني إسرائيل، ويدل على هذا قوله تعالى: { فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين } فالضمير في قوله: { إلا ذرية من قومه} عائد على فرعون، لأن السياق يدل عليه، وقيل: على موسى لقربه، والأول أظهر، كما هو

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

مقرر في التفسير، وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسطوته وجبروته وسلطته، ومن ملئهم أن ينموا عليهم إليه فيفتنهم عن دينهم. قال الله تعالى مخبرًا عن فرعون وكفي بالله شهيدًا: { وإن فرعون لعال في الأرض} أي جبار عنيد مستعل بغير الحق { وإنه لمن المسرفين} أي في جميع أموره وشئونه وأحواله، ولكنه جرثومة قد حان إنجعافها، وثمرة خبيثة قد آن قطافها، ومهجة ملعونة قد حتم إتلافها، وعند ذلك قال موسى: { يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين} يأمرهم بالتوكل على الله، والاستعانة به، والالتجاء إليه، فأتمروا بذلك، فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجًا ومخرجًا { وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين} أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون، عليهما السلام، أن يتخذوا لقومهما بيوتا متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط، ليكونوا على أهبة في الرحيل إذا أمروا به ليعرف بعضهم بيوت بعض، وقوله: { واجعلوا بيوتكم قبلة} قيل: مساجد، وقيل: معناه كثرة الصلاة فيها، قاله مجاهد وأبو مالك وإبراهيم النخعي والربيع والضحاك وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن وغيرهم. ومعناه على هذا: الاستعانة على ما هم فيه من الضر والشدة والضيق بكثرة الصلاة، كما قال تعالى: { واستعينوا بالصبر والصلاة} وكان رسول الله ρ إذا حزبه أمر صلى. وقيل: معناه أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم في مجتمعاتهم ومعابدهم، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم، عوضًا عما فاتهم من إظهار شعار الدين الحق، في ذلك الزمان الذى اقتضى حالهم اخفاءه، خوفا من فرعون وملئه، والمعنى الأول أقوى، لقوله: { وبشر المؤمنين} وإن كان لاينافي الثاني أيضًا والله أعلم، وقال سعيد بن جبير: { واجعلوا بيوتكم قبلة} أي: متقابلة { وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون} هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسى على عدو الله فرعون، غضبا لله عليه، لتكبره عن اتباع الحق، وصده عن سبيل الله، ومعاندته وعتوه وتمرده واستمراره على الباطل، ومكابرته الحق الواضح الجلي الحسي والمعنوي والبرهان القطعي، فقال: { ربنا إنك آتيت فرعون وملأه} يعني قومه من القبط، ومن كان على ملته، ودان بدينه: { زينة وأمولا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك} أي وهذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا فيحسب الجاهل أنهم على شيء، لكون هذه الأموال، وهذه الزينة من اللباس، والمراكب الحسنة الهنية، والدور الأنيقة، والقصور المبنية، والمآكل الشهية، والمناظر البهية، والملك العزيز والتمكين، والجاه العريض في الدنيا لا الدين { ربنا اطمس على أموالهم} قال ابن عباس ومجاهد: أي أهلكها. وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحاك: اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت. وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم صارت حجارة. وقال محمد بن كعب: جعل سكرهم حجارة، وقال أيضًا: صارت أموالهم كلها حجارة. ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز، فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له: قم ائتني بكيس، فجاءه بكيس، فإذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة، رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: { واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم} قال ابن عباس: أي اطبع عليها. وهذه دعوة غضب لله تعالى ولدينه ولبراهينه، فاستجاب الله تعالى لها وحققها وتقبلها كما استجاب لنوح في قومه حيث قال: { رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا}، ولهذا قال تعالى مخاطبًا لموسى حين دعا على فرعون وملئه وأمن أخوه هارون على دعائه فنزل ذلك منزلة الداعى أيضًا: { قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون} قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب: استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

إلى عيد لهم، فأذن لهم، وهو كاره، ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له، وإنما كان في نفس الأمر مكيدة بفرعون وجنوده ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم، وأمرهم الله تعالى، فيما ذكره أهل الكتاب، أن يستعيروا حليًا منهم فأعاروهم شيئًا كثيرًا، فخرجوا بليل، فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم طالبين بلاد الشام، فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق، واشتد غضبه عليهم، وشرع في استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم.

قال الله تعالى في سورة الشعراء: { وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) }.. قال علماء التفسير: لما ركب فرعون في جنوده طالباً بني إسرائيل يقفو أثرهم، كان في جيش كثيف عرمرم حتى قيل: كان في خيوله مائة ألف، فحل أدهم وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف، فالله أعلم، وقيل: إن بني إسرائيل كانوا نحوًا من ستمائة ألف مقاتل غير الذرية، وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى عليه السلام، ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وستًا وعشرين سنة شمسية.

والمقصود: أن فرعون لحقهم بالجنود فأدركهم عند شروق الشمس، وتراءى الجمعان ولم يبق ثم ريب ولا لُبس وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه، ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة، فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون: { إنا لمدركون} وذلك

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر، فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه، وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه، والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم، وهى شاهقة منيفة، وفرعون قد غالقهم وواجههم، وعاينوه في جنوده وجيوشه وعدده وعداده، وهم منه في غاية الخوف والذعر، لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمنكر، فشكوا إلى نبي الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه، فقال لهم الرسول الصادق المصدوق: { كلا إن معى ربي سيهدين}، وكان في الساقة فتقدم إلى المقدمة، فنظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه، ويتزايد زبد أجاجه، وهو يقول: هاهنا أمرت، ومعه أخوه هارون ويوشع بن نون، وهو يومئذ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار، وقد أوحى الله إليه وجعله نبيًا بعد موسى وهارون عليهما السلام، كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله، ومعهم أيضًا مؤمن آل فرعون، وهم وقوف وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عكوف، ويقال: إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مرارًا في البحر هل يمكن سلوكه فلا يمكن، ويقول لموسى عليه السلام: يا نبي الله، أههنا أمرت؟ فيقول: نعم، فلما تفاقم الأمر، وضاق الحال، واشتد الأمر، واقترب فرعون وجنوده في جدهم وحدهم وحديدهم وغضبهم وحنقهم، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، فعند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير رب العرش الكريم إلى موسى الكليم: { أن اضرب بعصاك البحر} فلما ضربه، يقال: إنه قال له: انفلق بإذن الله، ويقال: إنه كناه بأبي خلد، فالله أعلم، قال الله تعالى: { فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم} ويقال: إنه انفلق اثنتى عشرة طريقًا، لكل سبط طريق يسيرون فيه، حتى قيل: إنه صار أيضًا شبابيك ليري بعضهم بعضًا، وفي هذا نظر، لأن الماء جرم شفاف إذا كان من ورائه ضياء حكاه. وهكذا كان ماء البحر قائمًا مثل الجبال مكفوفًا بالقدرة العظيمة الصادرة من الذي يقول للشيء كن فيكون، وأمر الله ريح الدبور

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فلقحت حال البحر، فأذهبته حتى صار يابسًا لا يعلق في سنابك الخيول والدواب.

قال الله تعالى في سورة طه: { وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخَافُ دَرَكاً وَلا تَخْشَى (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩) }... والمقصود: أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال بإذن الرب العظيم الشديد المحال، أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببني إسرائيل، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين، ويهدي قلوب المؤمنين، فلما جاوزوه وجاوزه وخرج آخرهم منه وانفصلوا عنه، كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ووفودهم عليه، فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه، لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه، ولا سبيل عليه، فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال، كما قال وهو الصادق في المقال { وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآياتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ (٣٣) }، (الدخان).. فقوله تعالى: { واترك البحر رهوًا} أي ساكنا على هيئته لا تغيره عن هذه الصفة، قاله عبد الله بن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع والضحاك

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقتادة وكعب الأحبار وسماك بن حرب وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم. فلما تركه على هيئته وحالته، وانتهى فرعون فرأى ما رأى، وعاين ما عاين، هاله هذا المنظر العظيم، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك، من أن هذا من فعل رب العرش الكريم، فأحجم ولم يتقدم وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم، لكنه أظهر لجنوده تجلدا وعاملهم معاملة العدا، وحملته النفس الكافرة، والسجية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه وعلى باطله تابعوه: انظروا كيف انحسر البحرُ لى لأدرك عبيدي الآبقين من يدي الخارجين عن طاعتي وبلدي وجعل يوري في نفسه أن يذهب خلفهم ويرجو أن ينجو وهيهات، ويقدم تارة ويحجم تارات، فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدى في صورة فارس راكب على رمكة حايل، فمر بين يدي فحل فرعون، لعنه الله، فحمحم إليها، وأقبل عليها، وأسرع جبريل بين يديه، فاقتحم البحر واستبق الجواد، وقد أجاد فبادر مسرعا، هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضرًا ولا نفعًا، فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين، فحصلوا في البحر أجمعين أكتعين أبصعين، حتى هم أولهم بالخروج منه فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه فيما أوحاه إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فارتد عليهم البحر كما كان، فلم ينج منهم إنسان.

قال الله تعالى: { وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم} أي في إنجائه أولياءه، فلم يغرق منهم أحد، وإغراقه أعداءه، فلم يخلص منهم أحد آية عظيمة وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة والمناهج المستقيمة، وقال تعالى: { وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرائيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) }، (يونس). يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفرة

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

القبط، وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة، وترفعه أخرى، وبنو إسرائيل ينظرون إليه، وإلى جنوده، ماذا أحل الله به وبهم، من البأس العظيم والخطب الجسيم، ليكون أقر لأعين بني إسرائيل، وأشفى لنفوسهم، فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به وباشر سكرات الموت، أناب حينئذ وتاب، وآمن حين لا ينفع نفسا إيمانها، كما قال تعالى: { إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون* ولو جائتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم}، وقال تعالى: { فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين* فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأو بأسنا سنة الله التى قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون}، وهكذا دعا موسى على فرعون وملائه، أن يطمس على أموالهم، ويشدد على قلوبهم { فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم} أي حين لا ينفعهم ذلك، ويكون حسرة عليهم، وقد قال تعالى لهما أي لموسى وهارون حين دعوا بهذا: { قد أجيبت دعوتكما} فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليمه وأخيه هارون عليهما السلام. ومن ذلك الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا سليمان ابن حرب، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ρ : **(لما قال فرعون:** { آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل} **قال لي جبريل: لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة)**. ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم عند هذه الآية من حديث حماد بن سلمة. وقال الترمذى: حديث حسن.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ρ : **(قال لي جبريل: لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فم فرعون مخافة أن يناله الرحمة)**. ورواه الترمذي وابن جرير من حديث شعبة، وقال الترمذي: حسن غريب صحيح. وأشار ابن جرير في رواية إلى وقفه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي، عن

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما أغرق الله فرعون أشار بإصبعه ورفع صوته { آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل} قال: فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه، فجعل يأخذ الحال بجناحيه فيضرب به وجهه فيرمسه. ورواه ابن جرير من حديث أبي خالد به. وقد رواه ابن جرير من طريق كثير بن زاذان وليس بمعروف. وعن أبي حازم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ρ : **(قال لى جبريل: يا محمد، لو رأيتني وأنا أغطه وأدس من الحال في فيه مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له)**. يعني فرعون. وقد أرسله غير واحد من السلف كإبراهيم التيمي وقتادة وميمون بن مهران، ويقال: إن الضحاك بن قيس خطب به الناس. وفي بعض الروايات: **(إن جبريل قال: ما بغضت أحدًا بغضى لفرعون حين قال: أنا ربكم الأعلى، ولقد جعلت أدس في فيه الطين حين قال ما قال)**.

وقوله تعالى: { آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين} استفهام إنكار، ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك، لأنه والله أعلم، لو رد إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه، كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون: { يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين}، قال الله: { بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهو عنه وإنهم لكاذبون}، وقوله: { فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية}. قال ابن عباس وغير واحد: شك بعض بني إسرائيل في موت فرعون، حتى قال بعضهم: إنه لا يموت، فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع، قيل: على وجه الماء، وقيل: على نجوة من الأرض، وعليه درعه التي يعرفونها من ملابسه ليتحققوا بذلك هلاكه ويعلموا قدرة الله عليه، ولهذا قال: { فاليوم ننجيك ببدنك} أي مصاحبًا درعك المعروفة بك { لتكون} أي أنت آية { لمن خلفك} أي من بني إسرائيل، دليلاً على قدرة الله الذى أهلكه. ولهذا قرأ بعض السلف: {لتكون لمن خلقك آية}، ويحتمل أن يكون المراد ننجيك مصاحبًا لتكون درعك علامة لمن

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وراءك من بني إسرائيل على معرفتك وأنك هلكت، والله أعلم، وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء، كما قال الإمام البخاري في صحيحه: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قدم النبي ρ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا اليوم الذى تصومونه؟ فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، قال النبي ρ : (**أنتم أحق بموسى منهم فصوموا**). وأصل الحديث في الصحيحين وغيرهما، والله أعلم.

أمر بني إسرائيل بعد هلاك فرعون

قال الله تعالى في سورة الأعراف: { فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)}.. يذكر تعالى ما كان من أمر فرعون وجنوده في غرقهم، وكيف سلبهم عزهم ومالهم وأنفسهم، وأورث بني إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم، كما قال: { كذلك أورثناها بني إسرائيل}، وقال: { ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين}، وقال هاهنا { وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون}

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أي أهلك ذلك جميعه، وسلبهم عزهم العزيز العريض في الدنيا، وهلك الملك وحاشيته وأمراؤه وجنوده، ولم يبق ببلد مصر سوى العامة والرعايا. فذكر ابن عبد الحكم في تاريخ مصر: أنه في ذلك الزمان تسلط نساء مصر على رجالها بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجن بمن دونهن من العامة، فكانت لهن السطوة عليهم، واستمرت هذه سنّة نساء مصر إلى يومك هذا.

وعند أهل الكتاب: أن بني إسرائيل لما أمروا بالخروج من مصر جعل الله ذلك الشهر أول سنتهم، وأمروا أن يذبح كل أهل بيت حملا من الغنم، فإن كانوا لا يحتاجون إلى حمل فليشترك الجار وجاره فيه، فإذا ذبحوه فلينضحوا من دمه على أعتاب أبوابهم ليكون علامة لهم على بيوتهم، ولا يأكلونه مطبوخا ولكن مشويا برأسه وأكارعه وبطنه ولا يبقوا منه شيئًا، ولا يكسروا له عظما، ولا يخرجوا منه شيئا إلى خارج بيوتهم، وليكن خبزهم فطيرًا سبعة أيام ابتداؤها من الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم، وكان ذلك في فصل الربيع، فإذا أكلوا فلتكن أوساطهم مشدودة، وخفافهم في أرجلهم، وعصيهم في أيديهم، وليأكلوا بسرعة قيامًا ومهما فضل عن عشائهم، فما بقى إلى الغد فليحرقوه بالنار، وشرع لهم هذا عيدا لأعقابهم ما دامت التوراة معمولاً بها، فإذا نسخت بطل شرعها وقد وقع.

قالوا: وقتل الله عز وجل في تلك الليلة أبكار القبط، وأبكار دوابهم، ليشتغلوا عنهم وخرج بنو إسرائيل حين انتصف النهار، وأهل مصر في مناحة عظيمة على أبكار أولادهم، وأبكار أموالهم، ليس من بيت إلا وفيه عويل وحين جاء الوحي إلى موسى خرجوا مسرعين، فحملوا العجين قبل اختماره وحملوا الأزواد في الأردية وألقوها على عواتقهم، وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حليًا كثيرًا، فخرجوا وهم ستمائة ألف رجل سوى الذراري بما معهم من الأنعام، وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثين سنة، هذا نص كتابهم، وهذه السنة عندهم تسمى سنة الفسخ، وهذا العيد عيد الفسخ، ولهم عيد الفطير، وعيد الحمل، وهو أول السنة، وهذه الأعياد الثلاثة آكد أعيادهم منصوص عليها في كتابهم.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام، وخرجوا على طريق بحر سوف، وكانوا في النهار يسيرون والسحاب بين أيديهم يسير أمامهم فيه عامود نور، وبالليل أمامهم عامود نار، فانتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر، فنزلوا هنالك وأدركهم فرعون وجنوده من المصريين وهم هناك حلول على شاطىء اليم، فقلق كثير من بني إسرائيل حتى قال قائلهم كان بقاؤنا بمصر أحب إلينا من الموت بهذه البرية، وقال موسى عليه السلام لمن قال هذه المقالة: لا تخشوا فإن فرعون وجنوده لا يرجعون إلى بلدهم بعد هذا، قالوا: وأمر الله موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه، وأن يقسمه ليدخل بنو إسرائيل في البحر واليبس، وصار الماء من هاهنا وهاهنا كالجبلين، وصار وسطه يبسًا، لأن الله سلط عليه ريح الجنوب والسموم فجاز بنو إسرائيل البحر واتبعهم فرعون وجنوده، فلما توسطوه أمر الله موسى فضرب البحر بعصاه فرجع الماء كما كان عليهم، لكن عند أهل الكتاب: أن هذا كان في الليل، وأن البحر ارتطم عليهم عند الصبح، وهذا من غلطهم، وعدم فهمهم في تعريبهم، والله أعلم، قالوا: ولما أغرق الله فرعون وجنوده حينئذ سبح موسى وبنو إسرائيل بهذا التسبيح للرب، وقالوا: (نسبح الرب البهي الذى قهر الجنود ونبذ فرسانها في البحر المنيع المحمود)، وهو تسبيح طويل، قالوا: وأخذت مريم النبية أخت هارون دفًا بيدها، وخرج النساء في أثرها كلهن بدفوف وطبول، وجعلت مريم ترتل لهن وتقول: سبحان الرب القهار الذى قهر الخيول وركبانها إلقاء في البحر. هكذا رأيته في كتابهم، ولعل هذا هو من الذى حمل محمد بن كعب القرظي على زعمه، أن مريم بنت عمران أم عيسى هى أخت هارون وموسى مع قوله: { يا أخت هارون}. وقد بينا غلطه في ذلك وأن هذا لا يمكن أن يقال ولم يتابعه أحد عليه، بل كل واحد خالفه فيه، ولو قدر أن هذا محفوظ فهذه مريم بنت عمران أخت موسى وهارون عليهما السلام، وأم عيسى عليها السلام، وافقتها في الاسم واسم الأب واسم الأخ، لأنهم كما قال رسول الله ρ للمغيرة بن شعبة لما سأله أهل نجران عن قوله: يا أخت هارون، فلم يدر ما

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

يقول لهم حتى سأل رسول الله ρ عن ذلك، فقال: (**أما علمت أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم**). رواه مسلم. وقولهم: النبية كما يقال للمرأة من بيت الملك ملكة، ومن بيت الإمرة أميرة، وإن لم تكن مباشرة شيئًا من ذلك، فكذا هذه استعارة لها، لا أنها نبية حقيقة يوحى إليها، وضربها بالدف في مثل هذا اليوم الذى هو أعظم الأعياد عندهم، دليل على أنه قد كان شرع من قبلنا ضرب الدف في العيد، وهذا مشروع لنا أيضًا في حق النساء، لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة تضربان بالدف في أيام منى، ورسول الله ρ مضطجع مولى ظهره إليهم ووجهه إلى الحائط، فلما دخل أبو بكر زجرهن، وقال: أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ρ ؟ فقال: (**دعهن يا أبا بكر، فإن لكل قوم عيدًا وهذا عيدنا**). وهكذا يشرع عندنا في الأعراس، ولقدوم الغياب، كما هو مقرر في موضعه، والله أعلم.

وذكروا أنهم لما جاوزوا البحر وذهبوا قاصدين إلى بلاد الشام مكثوا ثلاثة أيام لا يجدون ماء، فتكلم من تكلم منهم بسبب ذلك، فوجدوا ماء زعاقًا أجاجًا لم يستطيعوا شربه، فأمر الله موسى فأخذ خشبة فوضعها فيه فحلا وساغ شربه، وعلمه الرب هنالك فرائض وسننا ووصاه وصايا كثيرة. وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز المهيمن على ما عداه من الكتب: { وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فاتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون(١٣٨) إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون(١٣٩)} قالوا هذا الجهل والضلال، وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ما دلهم على صدق ما جاءهم به رسول ذي الجلال والإكرام، وذلك أنهم مروا على قوم يعبدون أصنامًا، قيل: كانت على صور البقر، فكأنهم سألوهم لم يعبدونها، فزعموا لهم أنها تنفعهم وتضرهم ويسترزقون بها عند الضرورات، فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم في ذلك، فسألوا نبيهم الكليم الكريم العظيم أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة، فقال لهم مبينًا لهم أنهم لا يعقلون، ولا يهتدون: { إن هؤلاء متبر ما فيه، وباطل ما كانوا يعملون}، ثم ذكرهم نعمة الله عليهم في تفضيله إياهم على عالمي زمانهم بالعلم والشرع،

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

والرسول الذي بين أظهرهم وما أحسن به إليهم، وما امتن به عليهم، من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد، وإهلاكه إياه وهم ينظرون، وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال والسعادة، وما كانوا يعرشون، وبين لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له، لأنه الخالق الرازق القهار، وليس كل بني إسرائيل سأل هذا السؤال بل هذا الضمير عائد على الجنس في قوله: { وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة} أي قال بعضهم، كما في قوله: { وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا} فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلهم.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهرى، عن سنان بن أبي سنان الديلي، عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله ρ قبل حنين، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها، فقال النبي ρ : **(الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم)**. ورواه النسائي عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به. ورواه الترمذى عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي، عن سفيان بن عيينة، عن الزهري به. ثم قال: حسن صحيح. وقد روى ابن جرير من حديث محمد بن إسحاق ومعمر وعقيل، عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان، عن أبي واقد الليثى، أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ρ إلى خيبر، قال: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال فقلنا يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط. قال ρ**(قلتم: والذى نفسي بيده، كما قال قوم موسى لموسى:**{ اجعل لنا إلها كما لهم آلهةً قال إنكم قوم تجهلون* إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون}) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

والمقصود: أن موسى عليه السلام لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس، وجد فيها قومًا من الجبارين من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم، فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس، فإن الله كتبه لهم، ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل، أو موسى الكليم الجليل، فأبوا ونكلوا عن الجهاد، فسلط الله عليهم الخوف وألقاهم في التيه يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون في مدة من السنين طويلة هي من العدد أربعون، كما قال الله تعالى في سورة المائدة: { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) }.. يذكرهم نبي الله نعمة الله عليهم، وإحسانه عليهم بالنعم الدينية والدنيوية، ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله، ومقاتلة أعدائه، فقال: { يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم} أي تنكصوا على أعقابكم، وتنكلوا على قتال أعدائكم { فتنقلبوا خاسرين } أي فتخسروا بعد الربح، وتنقصوا بعد الكمال { قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين} أي عتاة كفرة متمردين { وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا فإنا داخلون} خافوا من هؤلاء الجبارين، وقد عاينوا هلاك فرعون، وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأسا وأكثر جمعا وأعظم جندا، وهذا يدل على أنهم ملومون في هذه المقالة

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ومذمومون على هذه الحالة من الذلة عن مصاولة الأعداء ومقاومة المردة الأشقياء.
وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا آثارا فيها مجازفات كثيرة باطلة يدل العقل والنقل على خلافها من أنهم كانوا أشكالا هائلة ضخامًا جدًا، حتى أنهم ذكروا أن رسل بني إسرائيل لما قدموا عليهم تلقاهم رجل من رسل الجبارين فجعل يأخذهم واحدًا واحدًا ويلفهم في أكمامه وحجزة سراويله، وهم اثنا عشر رجلاً، فجاء بهم فنثرهم بين يدي ملك الجبارين، فقال: ما هؤلاء؟ ولم يعرف أنهم من بني آدم حتى عرفوه، وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها، وأن الملك بعث معهم عنبا كل عنبةٌ تكفي الرجل، وشيئًا من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم، وهذا ليس بصحيح وذكروا هاهنا أن عوج ابن عنق خرج من عند الجبارين إلى بني إسرائيل ليهلكهم، وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلث ذراع، هكذا ذكره البغوى وغيره وليس بصحيح كما قدمنا بيانه عند قوله ρ : **(إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعًا، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن)**. قالوا: فعمد عوج إلى قمة جبل، فاقتلعها ثم أخذها بيديه ليلقيها على جيش موسى، فجاء طائر فنقر تلك الصخرة فخرقها فصارت طوقًا في عنق عوج بن عنق، ثم عمد موسى إليه فوثب في الهواء عشرة أذرع، وطوله عشرة أذرع وبيده عصاه، وطولها عشرة أذرع، فوصل إلى كعب قدمه فقتله، يروى هذا عن عوف البكالي، ونقله ابن جرير عن ابن عباس وفي إسناده إليه نظر. ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات، وكل هذه من وضع جهال بني إسرائيل، فإن الأخبار الكاذبة قد كثرت عندهم ولا تمييز لهم بين صحتها وباطلها، ثم لو كان هذا صحيحا لكان بنو إسرائيل معذورين في النكول عن قتالهم، وقد ذمهم الله على نكولهم، وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم، ومخالفتهم رسولهم، وقد أشار عليهم رجلان صالحان منهم بالإقدام، ونهياهم عن الإحجام، ويقال: إنهما يوشع بن نون وكالب بن يوقنا، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطية والسدي والربيع بن أنس وغير واحد. { قال رجلان من الذين يخافون} أي

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

يخافون الله وقرأ بعضهم: (يخافون) أي يهابون { أنعم الله عليهما} أي بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة { ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين} أي إذا توكلتم على الله واستعنتم به ولجأتم إليه نصركم على عدوكم، وأيدكم عليهم، وأظفركم بهم { قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون} فصمم ملاؤهم علىالنكول عن الجهاد، ووقع أمر عظيم، ووهن كبير، فيقال: إن يوشع وكالب لما سمعا هذا الكلام شقا ثيابهما، وإن موسى وهارون سجدا إعظامًا لهذا الكلام وغضبًا لله عز وجل، وشفقة عليهم من وبيل هذه المقالة { قال ربِّ إني لا أملك إلا نفسي وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين} قال ابن عباس: اقض بيني وبينهم { قال فإنها محرمةٌ عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين} عوقبوا على نكولهم بالتيهان في الأرض، يسيروا إلى غير مقصد ليلا ونهارا وصباحا ومساء، ويقال: إنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله، بل ماتوا كلهم في مدة أربعين سنة، ولم يبق إلا ذراريهم سوى يوشع وكالب عليهما السلام، لكن أصحاب محمد ρ يوم بدر لم يقولوا له كما قال قوم موسى لموسى، بل لما استشارهم في الذهاب إلى النفير تكلم الصديق فأحسن وغيره من المهاجرين، ثم جعل يقول: (**أشيروا عليَّ**). حتى قال سعد بن معاذ: كأنك تعرض بنا يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن يلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسر رسول الله ρ بقول سعد وبسطه ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن مخارق بن عبد الله الأحمسى، عن طارق، هو ابن شهاب، أن المقداد قال لرسول الله ρ يوم بدر: يا رسول الله، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: { اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون} ولكن اذهب أنت وربك

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فقاتلا، إنا معكما مقاتلون. وهذا إسناد جيد من هذا الوجه، وله طرق أخرى. قال أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا إسرائيل، عن مخارق، عن طارق بن شهاب، قال: قال عبد الله بن مسعود: لقد شهدت من المقداد مشهدًا، لأن أكون أنا صاحبه أحب إليَّ مما عدل به، أتى رسول الله ρ وهو يدعو على المشركين، قال: والله يا رسول الله، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: { اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون} ولكنا نقاتل عن يمينك، وعن يسارك ومن بين يديك، ومن خلفك، فرأيت وجه رسول الله ρ يشرق لذلك، وسر بذلك. رواه البخاري في التفسير والمغازي من طرق عن مخارق به.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا علي بن الحسن بن علي، حدثنا أبو حاتم الرازى، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا حميد، عن أنس، أن رسول الله ρ لما سار إلى بدر استشار المسلمين، فأشار عليه عمر، ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار، إياكم يريد رسول الله ρ ، قالوا: إذًا لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى: { اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون} والذي بعثك بالحق إن ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك. رواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميد، عن حميد الطويل، عن أنس به. ورواه النسائي عن محمد بن المثنى، عن خالد بن الحارث، عن حميد، عن أنس به نحوه. وأخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي يعلى، عن عبد الأعلى بن حماد، عن معتمر، عن حميد، عن أنس به نحوه.

سؤال الرؤية

قال الله تعالى: { وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) }، (الأعراف). قال جماعة من السلف، منهم ابن عباس ومسروق ومجاهد: الثلاثون ليلة هي شهر ذي القعدة بكماله، وأتمت أربعين ليلة بعشر ذي الحجة، فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر، وفي مثله أكمل الله عز وجل لمحمد ρ دينه وأقام حجته وبراهينه.

والمقصود: أن موسى عليه السلام لما استكمل الميقات وكان فيه صائمًا، يقال: إنه لم يستطعم الطعام، فلما كمل الشهر أخذ لحا شجرة فمضغه ليطيب ريح فمه، فأمر الله أن يمسك عشرًا أخرى، فصارت أربعين ليلة. ولهذا ثبت في الحديث: **(أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك)**. فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بني إسرائيل أخاه هارون المحبب المبجل الجليل، وهو ابن أمه وأبيه، ووزيره في الدعوة إلى مصطفيه، فوصاه وأمره، وليس في هذا لعلو منزلته في نبوته منافاة، قال الله تعالى: { ولما جاء موسى لميقاتنا} أي في الوقت الذى أمر بالمجيء فيه { وكلمه ربه} أي كمله الله من وراء حجاب إلا أنه أسمعه الخطاب فناداه وناجاه وقربه وأدناه، وهذا مقام رفيع ومعقل منيع ومنصب شريف ومنزل منيف، فصلوات الله عليه تترى وسلامه عليه في الدنيا والأخرى، ولما أُعطي هذه المنزلة العلية، والمرتبة السنية، وسمع الخطاب سأل رفع الحجاب، فقال للعظيم الذى لا تدركه الأبصار القوى البرهان: { رب

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أرني أنظر إليك قال لن تراني} ثم بين تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى، لأن الجبل الذي هو أقوى وأكبر ذاتًا وأشد ثباتًا من الإنسان لا يثبت عند التجلي من الرحمان، ولهذا قال: { ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني}.

وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال له: يا موسى، إنه لا يراني حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده. وفي الصحيحين عن أبي موسى، عن رسول الله ρ أنه قال: (حجابه النور - وفي رواية: النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه). وقال ابن عباس في قوله تعالى: { لا تدركه الأبصار}: ذاك نوره الذى هو نوره إذا تجلى لشيء لا يقوم له شيء، ولهذا قال تعالى: { فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين} قال مجاهد: { ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني} فإنه أكبر منك وأشد خلقًا، { فلما تجلى ربه للجبل}، فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل فدك على أوله، ورأي موسى ما يصنع الجبل، فخر صعقا. وقد ذكرنا في التفسير ما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه ابن جرير والحاكم من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت، زاد ابن جرير وليث، عن أنس أن رسول الله ρ قرأ: { فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا} وقال ρ: (**هكذا، بإصبعه، ووضع النبي r الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل**). لفظ ابن جرير. وقال السدي عن عكرمة وعن ابن عباس: ما تجلى، يعني من العظمة، إلا قدر الخنصر، فجعل الجبل دكًا قال: ترابا { وخر موسى صعقا} أي مغشيا عليه، وقال قتادة: ميتًا، والصحيح الأول، لقوله: { فلما أفاق} فإن الإفاقة إنما تكون عن غشى، قال: { سبحانك} تنزيه وتعظيم وإجلال أن يراه بعظمته أحد { تبت إليك} أي فلست أسأل بعد هذا الرؤية { وأنا أول المؤمنين} أنه لا يراك حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده. وقد ثبت في الصحيحين من طريق عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي حسن المازني الأنصارى، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري،

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال: قال رسول الله ρ : **(لا تخيروني من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي؟ أو جُوزي بصعقة الطور؟)** لفظ البخاري. وفي أوله: قصة اليهودي الذى لطم وجهه الأنصاري، حين قال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فقال رسول الله: **(لا تخيروني من بين الأنبياء)**. وفي الصحيحين من طريق الزهري عن أبي سلمة وعبد الرحمن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ρ بنحوه، وفيه: **(لا تخيروني على موسى)**، وذكر تمامه. وهذا من باب الهضم والتواضع أو نهى عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبية، أو ليس هذا إليكم، بل الله هو الذى رفع بعضهم فوق بعض درجات، وليس ينال هذا بمجرد الرأي بل بالتوقيف. ومن قال: إن هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل، ثم نسخ باطلاعه على أفضليته عليهم كلهم، ففي قوله نظر لأن هذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة، وما هاجر أبو هريرة إلا عام حنين متأخرًا، فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا، والله أعلم، ولا شك أنه صلوات الله وسلامه عليه، أفضل البشر بل الخليقة، قال الله تعالى: { كنتم خير أمة أخرجت للناس} وما كملوا إلا بشرف نبيهم، وثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه، أنه قال: **(أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، ولا فخر)**، ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون، الذى تحيد عنه الأنبياء والمرسلون، حتى أولو العزم الأكملون: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم. وقوله ρ : **(فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشا بقائمة العرش، أي آخذا بها، فلا أدري أفاق قبلى. جُوزى بصعقة الطور؟)**. دليل على أن هذا الصعق الذى يحصل للخلائق في عرصات القيامة حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين عباده، فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلال، فيكون أولهم إفاقة محمد خاتم الأنبياء، ومصطفي رب الأرض والسماء على سائر الأنبياء، فيجد موسى باطشا بقائمة العرش، قال الصادق المصدوق: **(لا أدري أصعق فأفاق قبلي؟)** أي كانت صعقته خفيفة، لأنه قد ناله بهذا السبب

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

في الدنيا صعق، **(أو جوزي بصعقة الطور؟)** يعني فلم يصعق بالكلية، وهذا شرف كبير لموسى عليه السلام من هذه الحيثية، ولا يلزم تفضيله بها مطلقًا من كل وجه، ولهذا نبه رسول الله ρ على شرفه وفضيلته بهذه الصفة، لأن المسلم لما ضرب وجه اليهودي حين قال: لا والذى اصطفى موسى على البشر، قد يحصل في نفوس المشاهدين لذلك هضم بجناب موسى عليه السلام، فبين النبي ρ فضيلته وشرفه، وقوله تعالى: { قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى} أي في ذلك الزمان، لا ما قبله لأن إبراهيم الخليل أفضل منه، كما تقدم بيان ذلك في قصة إبراهيم، ولا ما بعده لأن محمدًا ρ أفضل منهما، كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء، وكما ثبت أنه قال: **(سأقوم مقاما يرغب إلى الخلق حتى إبراهيم)**.

وقوله تعالى: { فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين} أي فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام، ولا تسأل زيادة عليه، وكن من الشاكرين على ذلك قال الله تعالى: { وكتبنا له في الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلاً لكل شىء} وكانت الألواح من جوهر نفيس ففي الصحيح: أن الله كتب له التوراة بيده، وفيها مواعظ عن الآثام وتفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام { فخذها بقوة} أي بعزم ونية صادقة قوية { وأمر قومك يأخذوا بأحسنها} أي يضعوها على أحسن وجوهها وأجمل محاملها { سأريكم دار الفاسقين} أي سترون عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري المكذبين لرسلي { سأصرف عن آياتى} عن فهمها وتدبرها، وتعقل معناها الذى أريد منها، ودل عليه مقتضاها: { الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وأن يروا كل آية لا يؤمنوا بها} أي ولو شاهدوا مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات لا ينقادون لاتباعها { وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا} أي لا يسلكوه ولا يتبعوه { وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا} أي صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا، وتغافلهم عنها وإعراضهم عن التصديق

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بها، والتفكر في معناها، وترك العمل بمقتضاها { والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون} .

قصة عبادتهم العجل في غيبة موسى

قال الله تعالى في سورة الأعراف:{ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ(١٥٤) }.. وقال تعالى في سورة طه: { وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى) (طـه:٨٣))قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً (٩٨)} .

يذكر تعالى ما كان من أمر بني إسرائيل حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه، فمكث على الطور يناجيه ربه، ويسأله موسى عليه السلام عن أشياء كثيرة، وهو تعالى يجيبه عنها، فعمد رجل منهم يقال له: هارون السامري، فأخذ ما كان استعاره من الحلي فصاغ منه عجلاً، وألقى فيه قبضة من التراب كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه، فلما ألقاها فيه خاركما بخور العجل الحقيقي، ويقال: إنه استحال { عجلاً جسدًا } أي لحمًا ودمًا حيًا يخور، قاله قتادة وغيره. وقيل: بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة، فيرقصون حوله ويفرحون { فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى} أي فنسي موسى ربه عندنا وذهب يتطلبه، وهو هاهنا تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، وتقدست أسماؤه وصفاته وتضاعفت آلاؤه وعداته، قال الله تعالى مبينا بطلان ما ذهبوا إليه وما عولوا عليه من إلهية هذا الذى قصاراه أن يكون حيوانًا بهيمًا أوشيطانًا رجيمًا: { أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا}، وقال: { ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين} فذكر أن هذا الحيوان لا يتكلم، ولا يرد جوابا، ولا يملك ضرا ولا نفعا، ولا يهدي إلى رشد، اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم عالمون في أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال { ولما

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

سقط في أيديهم} أي ندموا على ما صنعوا { ورأوا أنهم قد أضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين} ولما رجع موسى عليه السلام إليهم، ورأى ما هم عليه من عبادة العجل، ومعه الألواح المتضمنة التوراة ألقاها، فيقال: إنه كسرها، وهكذا هو عند أهل الكتاب وإن الله أبدله غيرها، وليس في اللفظ القرآني ما يدل على ذلك، إلا أنه ألقاها حين عاين ما عاين.

وعند أهل الكتاب: أنهما كانا لوحين، وظاهر القرآن أنها ألواح متعددة، ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل، فأمره بمعاينة ذلك، ولهذا جاء في الحديث الذى رواه الإمام أحمد وابن حبان عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ρ : **(ليس الخبر كالمعاينة)**، ثم أقبل عليهم فعنفهم ووبخهم وهجنهم في صنيعهم هذا القبيح، فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح قالوا إنا { حملنا أوزارًا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى} تحرجوا من تملك حلي آل فرعون، وهم أهل حرب، وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم، ولم يتحرجوا بجهلهم، وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد الذى له خوار، مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهار، ثم أقبل على أخيه هارون عليهما السلام، قائلا له: { يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن} أي هلا لما رأيت ما صنعوا اتبعتني فأعلمتني بما فعلوا؟ فقال: { إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل} أي تركتهم وجئتني وأنت قد استخلفتني فيهم { قال رب اغفر لي ولأخى وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين} وقد كان هارون عليه السلام نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهى وزجرهم عنه أتم الزجر.

قال الله تعالى: { ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به} أي إنما قدر الله أمر هذا العجل، وجعله يخور فتنة واختبارًا لكم { وإن ربكم الرحمن} أي لا هذا { فاتبعونى} أي فيما أقول لكم { وأطيعوا أمري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى} يشهد الله لهارون عليه السلام { وكفي بالله شهيدا} أنه نهاهم

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وزجرهم عن ذلك، فلم يطيعوه ولم يتبعوه، ثم أقبل موسى على السامري { قال ما خطبك يا سامرى} أي ما حملك على ما صنعت { قال بصرت بما لم يبصروا به} أي رأيت جبرائيل وهو راكب فرسا { فقبضت قبضة من أثر الرسول} أي من أثر فرس جبريل، وقد ذكر بعضهم: أنه رآه وكلما وطئت بحوافرها على موضع أخضر وأعشب، فأخذ من أثر حافرها، فلما ألقاه في هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان ولهذا قال: { فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس} وهذا دعاء عليه بأن لا يمس أحدًا معاقبة له على مسه ما لم يكن له مسه هذا معاقبة له في الدنيا، ثم توعده في الأخرى، فقال: { وإن لك موعدا لن تخلفه} وقرئ: { لن نخلفه} { وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا} قال: فعمد موسى عليه السلام إلى هذا العجل فحرقه بالنار، كما قاله قتادة وغيره. وقيل: بالمبارد، كما قاله على وابن عباس وغيرهما. وهو نص أهل الكتاب، ثم ذراه في البحر وأمر بني إسرائيل فشربوا، فمن كان من عابديه علق على شفاههم من ذلك الرماد منه ما يدل عليه، وقيل: بل اصفرت ألوانهم، ثم قال تعالى إخبارًا عن موسى أنه قال لهم: { إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما}.

وقال تعالى: { إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين} وهكذا وقع وقد قال بعض السلف: { وكذلك نجزى المفترين} مسجلة لكل صاحب بدعة إلى يوم القيامة، ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه وإحسانه على عبيده في قبوله توبة من تاب إليه بتوبته عليه فقال: { والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم} لكن لم يقبل الله توبة عابدي العجل، إلا بالقتل، كما قال تعالى: { وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم} فيقال: إنهم أصبحوا يومًا وقد أخذ من لم يعبد

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

العجل في أيديهم السيوف، وألقى الله عليهم ضبابًا حتى لا يعرف القريب قريبه، ولا النسيب نسيبه، ثم مالوا على عابديه، فقتلوهم وحصدوهم، فيقال: إنهم قتلوا في صبيحة واحدة سبعين ألفًا، ثم قال تعالى: { ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون} استدل بعضهم بقوله: { وفي نسختها} على إنها تكسرت، وفي هذا الاستدلال نظر، وليس في اللفظ ما يدل على أنها تكسرت، والله أعلم.

وقد ذكر ابن عباس في حديث الفتون كما سيأتي أن عبادتهم العجل كانت على أثر خروجهم من البحر، وما هو ببعيد، لأنهم حين خرجوا { قالوا يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة}.

وهكذا عند أهل الكتاب فإن عبادتهم العجل كانت قبل مجيئهم بلاد بيت المقدس، وذلك أنهم لما أمروا بقتل من عبد العجل قتلوا في أول يوم ثلاثة آلاف، ثم ذهب موسى يستغفر لهم فغفر لهم، بشرط أن يدخلوا الأرض المقدسة { وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) }، (الأعراف).

ذكر السدي وابن عباس وغيرهما: أن هؤلاء السبعين كانوا علماء بني اسرائيل، ومعهم موسى وهارون ويوشع وناداب وأبيهو ذهبوا مع موسى عليه السلام، ليعتذروا عن بني إسرائيل في عبادة من عبد

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

منهم العجل، وكانوا قد أمروا أن يتطيبوا ويتطهروا ويغتسلوا، فلما ذهبوا معه واقتربوا من الجبل وعليه الغمام وعمود النور ساطع وصعد موسى الجبل، فذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام الله، وهذا قد وافقهم عليه طائفة من المفسرين وحملوا عليه، قوله تعالى: { وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون} وليس هذا بلازم لقوله تعالى: { فأجره حتى يسمع كلام الله } أي مبلغًا وهكذا هؤلاء سمعوه مبلغًا عن موسى عليه السلام، وزعموا أيضًا أن السبعين رأوا الله، وهذا غلط منهم، لأنهم لما سألوا الرؤية أخذتهم الرجفة، كما قال تعالى: { وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون} وقال هاهنا: { فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي} الآية.

قال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً، الخير فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله، فقال: أفعل فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى، فدخل في الغمام، وقال للقوم: ادنوا، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودًا فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل.

فلما فرغ الله من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم قالوا: { لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة}، فأخذتهم الرجفة، وهي الصاعقة، فالتقت أرواحهم فماتوا جميعًا فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: { رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا} أي لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا،

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فإنا براء مما عملوا، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج: إنما أخذتهم الرجفة، لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل، وقوله: { إن هي إلا فتنتك} أي اختبارك وابتلاؤك وامتحانك، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس وغير واحد من علماء السلف والخلف، يعني أنت الذي قدرت هذا وخلقت ما كان من أمر العجل، اختبارا تختبرهم به كما { قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به} أي اختبرتم، ولهذا قال: { تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء} أي من شئت أضللته باختبارك إياه، ومن شئت هديته، لك الحكم والمشيئة، ولا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت { أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين* واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك} أي تبنا إليك ورجعنا وأنبنا، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو العالية وإبراهيم التيمي والضحاك والسدي وقتادة وغير واحد وهو كذلك في اللغة { قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء} أي أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التي أخلقها وأقدرها { ورحمتي وسعت كل شيء} كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ρ أنه قال: **(إن الله لما فرغ من خلق السماوات والأرض، كتب كتابًا فهو موضوع عنده فوق العرش، إن رحمتي تغلب غضبي)**. { فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون} أي فسأوحيها حتما لمن يتصف بهذه الصفات { الذين يتبعون الرسول النبي الأمي } الآية، وهذا فيه تنويه بذكر محمد ρ وأمته من الله لموسى عليه السلام في جملة ما ناجاه به وأعلمه وأطلعه عليه، وقد تكلمنا على هذه الآية وما بعدها في التفسير بما فيه كفاية ومقنع، ولله الحمد والمنة.

وقال قتادة: قال موسى: يا رب، إني أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، رب اجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون في الخلق السابقون في دخول الجنة، رب اجعلهم أمتي،

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرأونها، وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظرًا حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئًا، ولم يعرفوه وإن الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئًا لم يعطه أحدًا من الأمم، قال: رب اجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فصول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب، فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم، ويؤجرون عليها، وكان من قبلهم إذا تصدق بصدقة، فقبلت منه بعث الله عليها نارًا فأكلتها، وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطير، وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم، قال: رب فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب فإني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة، ثم لم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها، كتبت له عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، قال: رب اجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إني أجد في الألواح أمة هم المشفعون المشفوع لهم، فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد. قال قتادة: فذكر لنا أن موسى عليه السلام نبذ الألواح، وقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد. وقد ذكر كثير من الناس ما كان من مناجاة موسى عليه السلام، وأوردوا أشياء كثيرة لا أصل لها، ونحن نذكر ما تيسر ذكره من الأحاديث والآثار بعون الله وتوفيقه وحسن هدايته ومعونته وتأييده.

قصة بقرة بني إسرائيل

قال الله تعالى في سورة البقرة: { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)}، قال ابن عباس وعبيدة السلماني وأبو العالية ومجاهد والسدي وغير واحد من السلف: كان رجل في بني إسرائيل كثير المال، وكان شيخا كبيرًا وله بنو أخ، وكانوا يتمنون موته ليرثوه، فعمد أحدهم فقتله في الليل، وطرحه في مجمع الطرق، ويقال: على باب رجل منهم، فلما أصبح الناس اختصموا فيه، وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم، فقالوا: ما لكم تختصمون ولا تأتون نبي الله؟ فجاء ابن أخيه، فشكى أمر عمه إلى رسول الله موسى عليه السلام، فقال موسى عليه السلام: أنشد الله رجلا عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به، فلم يكن عند أحد منهم علم منه، وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربه عز وجل، فسأل ربه عز وجل في ذلك، فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة فقال: { إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا} يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل وأنت تقول هذا؟ { قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين} أي أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى إليّ، وهذا هو الذي أجابني حين سألته عما سألتموني عنه أن أسأله فيه. قال ابن عباس وعبيدة ومجاهد وعكرمة والسدي وأبو العالية وغير واحد: فلو أنهم عمدوا إلى أي بقرة فذبحوها لحصل المقصود منها، ولكنهم شددوا فشدد عليهم. وقد ورد فيه حديث مرفوع وفي إسناده ضعف، فسألوا عن صفتها ثم عن لونها ثم عن سنها؟ فأجيبوا بما عز وجوده عليهم.

والمقصود: أنهم أمروا بذبح بقرة (عوان)، وهي الوسط النصف بين، (الفارض) وهي الكبيرة، (والبكر) وهي الصغيرة، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والحسن وقتادة وجماعة. ثم شددوا وضيقوا على أنفسهم، فسألوا عن لونها؟ فأمروا بـ{ صفراء فاقع لونها} أي مشرب بحمرة { تسر الناظرين}، وهذا اللون عزيز،

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثم شددوا أيضا { فقالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وانا إن شاء الله لمهتدون} ففي الحديث المرفوع الذي رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه: **(لولا أن بني إسرائيل استثنوا لما أعطوا)** وفي صحته نظر، والله أعلم { قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لاشية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون} وهذه الصفات أضيق مما تقدم، حيث أمروا بذبح بقرة (ليست بالذلول)، وهي المذللة بالحراثة، وسقي الأرض بالسانية، مسلمة وهي الصحيحة التي لا عيب فيها، قاله أبو العالية وقتادة. وقوله: { لاشية فيها} أي ليس فيها لون يخالف لونها بل هي مسلمة من العيوب ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها، فلما حددها بهذه الصفات وحصرها بهذه النعوت والأوصاف { قالوا الآن جئت بالحق} ويقال: إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان بارًا بأبيه، فطلبوها منه فأبى عليهم، فارغبوه في ثمنها حتى أعطوه، فيما ذكر السدي، بوزنها ذهبًا، فأبى عليهم، حتى أعطوه بوزنها عشر مرات، فباعها منهم، فأمرهم نبي الله موسى بذبحها { فذبحوها وما كادوا يفعلون} أي وهم يترددون في أمرها، ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها، قيل: بلحم فخذها، وقيل: بالعظم الذي يلي الغضروف، وقيل: بالبضعة التي بين الكتفين، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى فقام وهو يشخب أوداجه، فسأله نبي الله من قتلك؟ قال: قتلني ابن أخي، ثم عاد ميتًا كما كان، قال الله تعالى: { كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون} أي كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له كذلك أمره في سائر الموتى، إذا شاء إحياءهم أحياهم في ساعة واحدة، كما قال: { ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة} الآية.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قصة موسى والخضر عليهما السلام

قال الله تعالى في سورة الكهف: { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً (٦٤) فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (٧٠) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٧٢) قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً (٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً (٧٦) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (٧٩) وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (٨٢)} .

قال بعض أهل الكتاب: إن موسى هذا الذي رحل إلى الخضر، هو موسى بن ميشا ابن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم الخليل، وتابعهم على ذلك بعض من يأخذ من صحفهم وينقل عن كتبهم، منهم نوف بن فضالة الحميري الشامي البكالي، ويقال: إنه دمشقي وكانت أمه زوجة كعب الأحبار، والصحيح الذي دل عليه ظاهر سياق القرآن ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه، أنه موسى بن عمران صاحب بني إسرائيل.

قال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرني سعيد ابن جبير، قال: قلت لابن عباس: إن نوفا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل، قال ابن عباس: كذب عدو الله، حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ρ يقول: (**إن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب، وكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتًا فتجعله بمكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، فأخذ حوتًا فجعله بمكتل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه فسقط في البحر،** { واتخذ سبيله في البحر سربًا}، **وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى** { لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا} **ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به** { قال} **له فتاه** { أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا} **قال فكان للحوت سربًا، ولموسى ولفتاه عجبًا** { قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

آثارهما قصصا} **قال: فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأني بأرضك السلام، قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل، قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدًا،** { قال إنك لن تستطيع معي صبرا} **يا موسى إني على علم من علم الله، علمنيه الله، لا تعلمه أنت وأنت على علم من علم الله، علمكه الله لا أعلمه، فقال:** { ..ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا} **قال له الخضر**: { فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا * فانطلقا...} **يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلمهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يفاجأ إلا والخضر قد قلع لوحًا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها** { ...لتغرق أهلها لقد جئت شيئًا إمرًا * قال ألم أقل إنك لن تستيطع معي صبرا * قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا*})، قال: وقال رسول الله ρ : **(وكانت الأولى من موسى نسيانًا، قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده، فاقتلعه بيده، فقتله، فقال له موسى**:{ أقتلت نفسًا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا} **قال:** { ألم أقل لك إنك لن تسطيع معي صبرا} **قال وهذه أشد من الأولى**: { قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا * فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض}، **قال: مائل، فقال: الخضر بيده** { فأقامه} **فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا** { لو شئت لاتخذت عليه أجرًا * قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا})، قال رسول الله ρ : **(وددنا أن موسى**

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما). قال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ: (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا) وكان يقرأ: (وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين).

ثم رواه البخاري أيضًا عن قتيبة، عن سفيان بن عيينة، بإسناده نحوه. وفيه: **(فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت، حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزلا عندها، قال: فوضع موسى رأسه فنام)**. قال سفيان: وفي حديث غير عمرو قال: **(وفي أصل الصخرة عين يقال لها: الحياة، لا يصيب من مائها شيء إلا حيى، فأصاب الحوت من ماء تلك العين، قال: فتحرك وانسل من المكتل، ودخل البحر، فلما استيقظ** { قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا} وساق الحديث). وقال: **(ووقع عصفور على حرف السفينة، فغمس منقاره في البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره)**، وذكر تمام الحديث.

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم، قال: أخبرني يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار، عن سعيد بن جبير، يزيد أحدهما على صاحبه، وغيرهما قد سمعته يحدثه عن سعيد بن جبير، قال: إنا لعند ابن عباس في بيته إذ قال: سلوني، فقلت: أي أبا عباس، جعلني الله فداك، بالكوفة رجل قاص يقال له: نوف، يزعم أنه ليس بموسى بني إسرائيل، أما عمرو فقال لي: قال: قد كذب عدو الله، وأما يعلى فقال لي: قال ابن عباس: حدثني أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ρ : **(موسى رسول الله، قال: ذكر الناس يومًا، حتى إذا فاضت العيون، ورقت القلوب ولى، فأدركه رجل، فقال: أي رسول الله، هل في الأرض أحد أعلم منك؟ قال: لا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله، قيل: بلى، قال: أي رب، فأين؟ قال: بمجمع البحرين، قال: أي رب؟ اجعل لي علما أعلم ذلك به. قال لي عمرو: قال: حيث يفارقك الحوت، وقال لي يعلى: قال خذ حوتًا ميتًا حيث ينفخ فيه الروح، فأخذ حوتًا فجعله في مكتل، فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت،**

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال: ما كلفت كبيرًا فذلك قوله: { وإذ قال موسى لفتاه} **يوشع بن نون،** ليست عن سعيد ابن جبير، قال: **فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان، إذ اضطرب الحوت وموسى نائم، فقال فتاه: لا أوقظه، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره، واضطرب الحوت حتى دخل البحر، فأمسك الله عنه جرية البحر، حتى كأن أثره في حجر، قال لي عمرو: هكذا كأن أثره في حجر، وحلق بين إبهاميه، واللتين تليانهما** { لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا} قال: **وقد قطع الله عنك النصب،** ليست هذه عن سعيد، **أخبره فرجعا، فوجدا خضرًا.** قال لي عثمان بن أبي سليمان: **على طنفسة خضراء على كبد البحر،** قال سعيد: **مسجى بثوبه، قد جعل طرفه تحت رجليه، وطرفه تحت رأسه، فسلم عليه موسى، فكشف عن وجهه، وقال: هل بأرض من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل، قال: نعم، قال: فما شأنك؟ قال: جئتك لتعلمني مما علمت رشدا، قال: أما يكفيك أن التوارة بيديك، وأن الوحي يأتيك يا موسى، إن لي علمًا لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علمًا لا ينبغي لي أن أعلمه، فأخذ طائر بمنقاره من البحر، فقال: والله، ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر** { حتى إذا ركبا في السفينة } **وجدا معابر صغارًا تحمل أهل هذا الساحل إلى أهل هذا الساحل الآخر، عرفوه، فقالوا: عبد الله الصالح،** قال: فقلنا لسعيد: خضر؟ قال: نعم، **لا نحمله بأجر فـ**{ خرقها} **ووتد فيها وتدًا** { قال} **موسى** { أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرًا} قال مجاهد: منكرًا { قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا} كانت الأولى نسيانًا، والوسطى شرطًا، والثالثة عمدًا { قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا * فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله}، قال يعلى: قال سعيد: وجد غلمانًا يلعبون، فأخذ غلامًا كافرًا ظريفًا فأضجعه، ثم ذبحه بالسكين { قال أقتلت نفسا زكية} لم تعمل بالخبث، ابن عباس قرأها: (زكية زاكية مسلمة). كقولك: غلامًا زكيًا، فانطلقا { فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه} قال: بيده

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

هكذا، ورفع يده فاستقام، قال يعلى: حسبت أن سعيدًا قال: فمسحه بيده فاستقام { قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا} قال سعيد: أجرًا نأكله { وكان وراءهم} وكان أمامهم، قرأها ابن عباس: (أمامهم)، ملك يزعمون، عن غير سعيد، أنه هدد بن بدد، والغلام المقتول: يزعمون جيسور { ملك يأخذ كل سفينة غصبا} فإذا هي مرت به يدعها بعيبها، فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها، منهم من يقول: سدوها بقارورة، ومنهم من يقول: بالقار { كان أبواه مؤمنين} وكان كافرا { فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا} أي يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه { فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة} لقوله { أقتلت نفسا زكية} { وأقرب رحما} هما به أرحم منهما بالأول الذي قتل خضر، وزعم سعيد بن جبير: أنه ابن لا جارية، وأما داود بن أبي عاصم، فقال عن غير واحد: إنها جارية.

وقد رواه عبد الرزاق عن معمر، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: خطب موسى بني إسرائيل، فقال: ما أحد أعلم بالله وبأمره مني، فأمر أن يلقى هذا الرجل، فذكر نحو ما تقدم. وهكذا رواه محمد بن إسحاق عن الحسن بن عمارة، عن الحكم بن عيينة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن رسول الله ρ كنحو ما تقدم أيضًا. ورواه العوفي عنه موقوفًا. وقال الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس، أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى، فقال ابن عباس: هو خضر، فمر بهما أبي بن كعب، فدعاه ابن عباس، فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه، فهل سمعت من رسول الله فيه شيئا؟ قال: نعم، وذكر الحديث. وقد تقصينا طرق هذا الحديث وألفاظه، في تفسير سورة الكهف ولله الحمد.

وقوله: { وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة} قال السهيلي : وهما أصرم وصريم ابنا كاشح { وكان تحته كنز لهما} قيل: كان ذهبًا، قاله عكرمة. وقيل: علمًا، قاله ابن عباس. والأشبه أنه كان

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

لوحًا من ذهب، مكتوبًا فيه علم. قال البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا بشر بن المنذر، حدثنا الحرث بن عبد الله اليحصبي، عن عياش بن عباس الغساني، عن ابن حجيرة، عن أبي ذر رفعه، قال: إن الكنز الذي ذكر الله في كتابه لوح من الذهب مصمت: عجبت لمن أيقن بالقدر كيف نصب؟ وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك؟ وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل؟ لا إله إلا الله. وهكذا روى عن الحسن البصري وعمر مولى عفرة وجعفر الصادق نحو هذا. وقوله: { وكان أبوهما صالحا} وقد قيل: إنه كان الأب السابع، وقيل: العاشر، وعلى كل تقدير فيه دلالة على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، فالله المستعان.

وقوله: { رحمة من ربك} دليل على أنه كان نبيًا، وأنه ما فعل شيئًا من تلقاء نفسه، بل بأمر ربه، فهو نبي، وقيل: رسول، وقيل: ولي، وأغرب من هذا من قال: كان ملكا، قلت: وقد أغرب جدًا من قال: هو ابن فرعون، وقيل: إنه ابن الضحاك الذي ملك الدنيا ألف سنة، قال ابن جرير: والذي عليه جمهور أهل الكتاب: أنه كان في زمن أفريدون، ويقال: إنه كان على مقدمة ذي القرنين، الذي قيل إنه كان أفريدون، وذو الفرس هو الذي كان في زمن الخليل، وزعموا: أنه شرب من ماء الحياة فخلد، وهو باق إلى الآن، وقيل: إنه من ولد بعض من آمن بإبراهيم وهاجر معه من أرض بابل، وقيل: اسمه ملكان، وقيل: أرميا بن خلقيا، وقيل: كان نبيًا في زمن سباسب بن لهراسب، قال ابن جرير: وقد كان بين أفريدون وبين سباسب دهور طويلة لا يجهلها أحد من أهل العلم بالأنساب، قال ابن جرير: والصحيح أنه كان في زمن أفريدون، واستمر حيا إلى أن أدركه موسى عليه السلام، وكانت نبوة موسى في زمن منوشهر، الذي هو من ولد أبرج بن أفريدون، أحد ملوك الفرس، وكان إليه الملك بعد جده أفريدون لعهده، وكان عادلاً وهو أول من خندق الخنادق، وأول من جعل في كل قرية دهقانًا، وكانت مدة ملكه قريبًا من مائة وخمسين سنة، ويقال: إنه كان من سلالة إسحاق بن إبراهيم، وقد ذكر عنه من الخطب الحسان، والكلم البليغ النافع الفصيح، ما يبهر

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

العقل ويحير السامع، وهذا يدل على أنه من سلالة الخليل، والله أعلم.
وقد قال الله تعالى: { وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمه ثم جائكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم} الآية.
فأخذ الله ميثاق كل نبي على أن يؤمن بمن يجيء بعده من الأنبياء وينصره، واستلزم ذلك الإيمان وأخذ الميثاق لمحمد ρ لأنه خاتم الأنبياء فحق على كل نبي أدركه أن يؤمن به وينصره فلو كان الخضر حيًا في زمانه لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره، ولكان من جملة من تحت لوائه يوم بدر كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكة، وقصارى الخضر عليه السلام أن يكون نبيًا، وهو الحق، أو رسولا، كما قيل، أو ملكًا، فيما ذكر، وأيا ما كان: فجبريل رئيس الملائكة، وموسى أشرف من الخضر، ولو كان حيًا لوجب عليه الإيمان بمحمد ونصرته، فكيف إن كان الخضر وليًا كما يقوله طوائف كثيرون، فأولى أن يدخل في عموم البعثة وأحرى، ولم ينقل في حديث حسن، بل ولا ضعيف، يعتمد أنه جاء يومًا واحدًا إلى رسول الله ρ ، ولا اجتمع به، وما ذكر من حديث التغرية فيه، وإن كان الحاكم قد رواه فإسناده ضعيف، والله أعلم.

حديث الفتون المتضمن قصة موسى من أولها إلى آخرها

قال الإمام أبو عبد الرحمن النسائي، في كتاب التفسير من سننه، عند قوله تعالى في سورة طه: { وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا}: حديث الفتون حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا أصبغ بن زيد، حدثنا القاسم بن أبي أيوب، أخبرني سعيد بن جبير، قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله تعالى: { وفتناك فتونا} فسأله عن الفتون ما هو؟ فقال: استأنف النهار يا ابن جبير، فإن لها حديثا طويلا، فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال: تَذَكَّر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد ابراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أنبياء وملوكًا، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك، ما يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم، فقال فرعون: فكيف ترون؟ فأتمروا، وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولودًا ذكرًا إلا ذبحوه، ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم، والصغار يذبحون، قالوا: توشكون أن تفنوا بني إسرائيل، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة الذي كانوا يكفونكم، فاقتلوا عامًا كل مولود ذكر فتقل بناتهم، ودعوا عامًا فلا تقتلوا منهم أحدًا، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم، فتخافوا مكاثرتهم إياكم، ولن تفتنوا بمن تقتلون، وتحتاجون إليهم، فأجمعوا أمرهم على ذلك، فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا تقتل فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة، فلما كان من قابل، حملت بموسى عليه السلام، فوقع في قلبها الهم والحزن، وذلك من الفتون يا ابن جبير، ما دخل عليه في بطن أمه مما يراد، فأوحى الله إليها أن لا تخافي، ولا تحزني { إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين} فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت وتلقيه في اليم، فلما ولدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان، فقالت في نفسها: ما فعلت بابني لو ذبح عندي فواريته وكفنته، كان أحب إليّ من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه، فانتهى الماء به حتى أوفي عند فرضة تستقي منها جواري امرأة فرعون، فلما رأينه أخذنه، فهممن أن يفتحن التابوت، فقال بعضهن: إن في هذا مالاً، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه، فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئًا، حتى دفعنه إليها، فلما فتحته رأت فيه غلامًا، فألقى عليه منها محبة لم تلق منها على أحد قط، { وأصبح فؤاد أم موسى فارغا}: من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى، فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير، فقالت لهم: أقروه، فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل، حتى آتى فرعون فأستوهبه منه، فإن وهبه مني كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ألمكم، فأتت فرعون فقالت: { قرة عين لي ولك} فقال فرعون: يكون لك، فأما لي فلا حاجة لي فيه: فقال رسول الله ρ : **(والذي يحلف به، لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها، ولكن حرمه ذلك)** فأرسلت إلى من حولها، إلى كل امرأة لها لأن تختار ظئرا، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت فأحزنها ذلك، فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس، ترجو أن تجد له ظئرًا يأخذه منها، فلم يقبل، وأصبحت أم موسى والهًا، فقالت لأخته: قصي أثره واطلبيه، هل تسمعين له ذكرًا؟ أحي إبني أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه، { فبصرت به} أخته { عن جُنب وهم لا يشعرون}، والجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه لا يشعر به، فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات:{ أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون}، فقالوا: ما يدريك ما نصحهم؟ هل يعرفونه، حتى شكوا في ذلك، وذلك من الفتون يا ابن جبير، فقالت: نُصحهم له، وشفقتهم عليه، ورغبتهم في صهر الملك، ورجاء منفعة الملك، فأرسلوها، فانطلقت إلى أمها، فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه، فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصه، حتى امتلأ جنباه ريا، وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظئرا، فأرسلت إليها، فأتت بها وبه، فلما رأت ما يصنع بها، قالت: أمكثي ترضعي ابني هذا، فإني لم أحب شيئًا حبه قط، قالت أم موسى: لا أستطيع أن أترك بيتي وولدي فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينيه، فأذهب به إلى بيتي، فيكون معى، لا آلوه خيرًا، فعلت، فإني غير تاركة بيتي وولدي، وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها، فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت أن الله منجز موعوده، فرجعت إلى بيتها من يومها، وأنبته الله نباتًا حسنًا، وحفظ لما قد قضى فيه، فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم، فلما ترعرع، قالت امرأة فرعون لأم موسى: أريني ابني، فوعدتها يومًا تريها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخازنها وظئورها

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة، لأرى ذلك فيه، وأنا باعثة أمينًا يحصي كل ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها نحلته وأكرمته، فرحت به، ونحلت أمه بحسن أثرها عليه، ثم قالت: لآتين به فرعون فلينحلنه وليكرمنه، فلما دخلت به عليه، جعله في حجره، فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه أنه زعم أنه يرثك ويعلوك ويصرعك؟ فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه، وذلك من الفتون يا بن جبير بعد كل بلاء ابتلى به وأريد به، فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون، فقالت: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال: ألا ترينه يزعم أنه يصرعني ويعلوني؟ فقالت: اجعل بيني وبينك أمرًا تعرف فيه الحق، أئت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين، علمت أن أحدًا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل، فقرب إليه، فتناول الجمرتين، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان هم به، وكان الله بالغًا فيه أمره، فلما بلغ أشده وكان من الرجال، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة، حتى امتنعوا كل الامتناع، فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان، أحدهما فرعوني، والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فغضب موسى غضبًا شديدًا لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل، وحفظه لهم ما لم يطلع عليه غيره، فوكز موسى الفرعوني فقتله، وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل: { هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين} ثم قال: { قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) }، (القصص)... الأخبار، فأتى فرعون، فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون، فخذ لنا بحقنا، ولا ترخص لهم، فقال: ابغوني قاتله من يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صفوة مع قومه لا ينبغي له أن يقتل بغير بينة ولا ثبت، فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم، فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة، إذا موسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فصادف موسى قد ندم على ما كان منه، وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم: { إنك لغوي مبين} فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعدما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذى قتل فيه الفرعوني، فخاف أن يكون بعد ما قال له: { إنك لغوي مبين} أن يكون إياه أراده، ولم يكن أراده إنما أراد الفرعوني، فخاف الإسرائيلي، وقال لموسى:{ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس}، وإنما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله فتتاركا، وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: { أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس}، فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون الطريق الأعظم يمشون على هينتهم يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة فاختصر طريقًا حتى سبقهم إلى موسى فأخبره، وذلك من الفتون يا ابن جبير، فخرج موسى متوجهًا نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل، فإنه قال: { عسى ربي أن يهديني سواء السبيل* ولما ورد ماء مدين وجد عليه امة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان } يعني بذلك حابستين غنمهما، فقال لهما: { ما خطبكما} معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قوة تزاحم القوم، وإنما ننتظر فضول حياضهم، فسقى لهما، فجعل يغرف من الدلو ماء كثيرًا حتى كان أول الرعاء، وانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما،

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وانصرف موسى فاستظل بشجرة { فقال رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير}، واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلا بطانا، فقال: إن لكما اليوم لشأنًا، فأخبرتاه بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسى فدعته فلما كلمه { قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين}، ليس لفرعون ولا قومه علينا من سلطان، ولسنا في مملكته فـ { قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين} فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته؟ وما أمانته؟ فقالت: أما قوته: فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما الأمانة: فإنه نظر إلى حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم إني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك، ثم قال لي: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين، فسري عن أبيها، وصدقها، وظن به الذي قالت، فقال له: هل لك { أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين} ففعل، فكانت على نبي الله موسى ثمان سنين واجبة، وكانت السنتان عدة منه، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشرا - قال سعيد، هو ابن جبير فلقيني: رجل من أهل النصرانية من علمائهم، قال: هل تدري أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا، وأنا يومئذ لا أدري، فلقيت ابن عباس، فذكرت ذلك له، فقال: أما علمت أن ثمانية كانت على نبي الله واجبة لم يكن نبي الله لينقص منها شيئا، وتعلم أن الله كان قاضيًا عن موسى عدته التي وعده، فإنه قضى عشر سنين، فلقيت النصراني، فأخبرته ذلك، فقال: الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك؟ قلت: أجل، وأولى - فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصى ويده ما قص الله عليك في القرآن، فشكا إلى الله تعالى ما يتخوف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون ويكون له ردءًا ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فآتاه الله عز وجل وحل عقدة من

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

لسانه، وأوحى الله إلى هارون فأمره أن يلقاه، فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون، فانطلقا جميعًا إلى فرعون، فأقاما على بابه حينًا لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا:{ إنا رسولا ربك}، فقال: { فمن ربكما}؟ فأخبره بالذي قص الله عليك في القرآن، قال: فما تريدان؟ وذكره القتيل، فاعتذر بما قد سمعت، قال: أريد أن تؤمن بالله، وترسل معي بني إسرائيل، فأبى عليه، وقال: { ائت بآية إن كنت من الصادقين}، فألقى عصاه، فإذا هي ثعبان عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون، فلما رأها فرعون قاصدة إليه خافها، واقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه، ففعل ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء، يعني من غير برص ثم ردها فعادت إلى لونها الأول فاستشار الملأ حوله فيما رأى فقالوا له: { هذان ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى} يعني ملكهم الذي هم فيه والعيش، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئًا مما طلب، وقالوا له: اجمع السحرة فإنهم بأرضك كثير، حتى تغلب بسحرك سحرهما، فأرسل إلى المدائن، فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا بم يعمل السحر؟ قالوا: يعمل بالحيات، قالوا: فلا والله ما أحد من الأرض يعمل السحر بالحيات، والحبال والعصي الذي نعمل، وما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال: لهم أنتم أقاربي وخاصتي، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم، فتواعدوا { يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى} قال سعيد: فحدثني ابن عباس: أن يوم الزينة: اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة، هو يوم عاشوراء، فلما اجتمعوا في صعيد، قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر، { لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين}، يعنون موسى وهارون استهزاء بهما، فقالوا: يا موسى، بعد تريثهم بسحرهم: { إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين} قال: بل ألقوا، فألقوا حبالهم وعصيهم، وقالوا: بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون، فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه، خيفة فأوحى الله إليه: { أن ألق عصاك}، فلما ألقاها صارت

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثعبانًا عظيمة فاغرة فاها، فجعلت العصي تلتبس بالحبال حتى صارت جرزًا على الثعبان أن تدخل فيه، حتى ما أبقت عصا ولا حبلاً إلا ابتلعته، فلما عرف السحرة ذلك، قالوا: لو كان هذا سحرًا لم تبلغ من سحرنا كل هذا، ولكنه أمر من الله تعالى آمنا بالله وبما جاء به موسى، ونتوب إلى الله مما كنا عليه، فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه، وظهر الحق { وبطل ما كانوا يعملون، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين}، وامرأة فرعون بارزة مبتذلة تدعوا لله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهمها لموسى، فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا مضت أخلف من غَدِه، وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟ فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، كل ذلك يشكو إلى موسى، ويطلب إليه أن يكفها عنه، ويوافقه على أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا كف ذلك عنه أخلف بوعده ونكث عهده، حتى أُمر موسى بالخروج بقومه، فخرج بهم ليلاً، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا، أرسل في المدائن حاشرين، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة، وأوحى الله إلى البحر: إذا ضربك موسى عبدي بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة، حتى يجوز موسى ومن معه، ثم التقى على من بقي بعد من فرعون وأشياعه، فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصى، وانتهى إلى البحر وله قصيف، مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل، فيصير عاصيًا لله عز وجل { فلما تراءى الجمعان} وتقاربا { قال أصحاب موسى: إنا لمدركون} افعل ما أمرك به ربك، فإنه لم يكذب، ولم تكذب، قال: وعدني ربي إذا أتيت البحر انفرق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه، ثم ذكر بعد ذلك العصى، فضرب البحر بعصاه حين دنا اوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفرق البحر كما أمره ربه، وكما وعد موسى، فلما جاوز موسى وأصحابه كلهم البحر، ودخل فرعون وأصحابه التقى عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسى قال أصحابه: إنا نخاف أن

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

لا يكون فرعون غرق، ولا نؤمن بهلاكه، فدعا ربه، فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه، ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم { قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون* إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون} قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم، ومضى فأنزلهم موسى منزلاً، وقال: أطيعوا هارون فإن الله قد استخلفه عليكم، فإني ذاهب إلى ربي، وأجلهم ثلاثين يومًا أن يرجع إليهم فيها، فلما أتى ربه عز وجل وأراد أن يكلمه في ثلاثين يومًا، وقد صامهن ليلهن ونهارهن وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى شيئا من نبات الأرض فمضغه، فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت، وهو أعلم بالذي كان، قال: يا رب، إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح، قال: أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب من ريح المسك، ارجع فصم عشرًا ثم ائتنى، ففعل موسى ما أمره به ربه، فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل ساءهم ذلك، وكان هارون قد خطبهم، فقال: إنكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع، ولكم فيها مثل ذلك، وأنا أرى أن تحتسبوا مالكم عندهم، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية، ولسنا برادين إليهم شيئًا من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا، فحفر حفيرًا، وأمر كل قوم عندهم من ذلك متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار فأحرقه، فقال: لا يكون لنا ولا لهم، وكان السامري من قوم يعبدون البقر جيران لبني إسرائيل، ولم يكن من بني إسرائيل، فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا، فقضى له أن رأى أثرًا، فقبض منه قبضة، فمر بهارون، فقال له هارون: يا سامري، إلا تلقي ما في يديك، وهو قابض عليه لا يراه أحد طوال ذلك، فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر، ولا ألقيها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد، فألقاها، ودعا له هارون، فقال: أريد أن تكون عجلاً، فاجتمع ما كان في الحفرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد فصار عجلا أجوف، ليس فيه روح، له خوار. قال ابن عباس: لا والله ما كان فيه صوت قط، إنما كانت

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك، فتفرق بنو إسرائيل فرقًا، فقالت فرقة: يا سامري، ما هذا وأنت أعلم به؟ قال: هذا ربكم، ولكن موسى أضل الطريق، وقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حتى رأيناه، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى، وقالت فرقة: هذا من عمل الشيطان، وليس بربنا، ولا نؤمن به ولا نصدق، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل، وأعلنوا التكذيب به، فقال لهم هارون عليه السلام: يا قوم، إنما فتنتم به، وإن ربكم الرحمن، ليس هذا، قالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يومًا ثم أخلفنا، هذه أربعون يومًا قد مضت؟ قال سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو يطلبه ويبتغيه، فلما كلم الله موسى، وقال له ما قال، أخبره بما لقي قومه من بعده، فرجع إلى قومه غضبان أسفًا، فقال لهم ما سمعتم ما في القرآن { وأخذ برأس أخيه يجره إليه} وألقى الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره، واستغفر له، فانصرف إلى السامري فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: قبضت قبضة من أثر الرسول، وفطنت لها وعميت عليكم فقذفتها { قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً (٩٧) }، (طه). ولو كان إلهًا لم يخلص إلى ذلك منه، فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى، سل لنا أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فتكفر عنا ما عملنا، فاختار موسى قومه سبعين رجلاً لذلك، لا يألوا الخير، خيار بني إسرائيل، ومن لم يشرك في الحق، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض، فاستحيا نبي الله عليه السلام من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل، فقال: { لو شئت لأهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا} وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

حب العجل وإيمان به، فلذلك رجفت بهم الأرض، فقال: { وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) }، (الأعراف). فقال: يا رب، سألتك التوبة لقومي، فقلت: إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي، فليتك أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحوم، فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل من لقي من والد وولد، فيقتله بالسيف لا يبالي من قتل في ذلك الموطن، وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون، واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا، وغفر الله للقاتل والمقتول، ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجهًا نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمر به من الوظائف، فثقل ذلك عليهم، وأبوا أن يقروا بها ونَتَقَ الله عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم، حتى خافوا أن يقع عليهم، وأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم، وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم، ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون، خلقهم خلق منكر، وذكر من ثمارهم أمرًا عجبًا من عظمها، فقالوا: يا موسى، إن فيها قومًا جبارين لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون، قال رجلان من الذين يخافون - قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم من الجبارين - آمنا بموسى وخرجنا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم، فادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، ويقول أناس: إنهم من قوم موسى، فقال الذين يخافون من بني إسرائيل { قالوا يا موسى إنا لن

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون} فأغضبوا موسى، فدعا عليهم، وسماهم: فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم، حتى كان يومئذ فاستجاب الله له، وسماهم كما سماهم: فاسقين، فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض، يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل لهم ثيابًا لا تبلي ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم حجرًا مربعًا، وأمر موسى فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، في كل ناحية ثلاثة أعين، وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها، فلا يرتحلون من محلة إلا وجدوا ذلك الحجر بالمكان الذي كان فيه بالأمس.

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ρ ، وصِدْقُ ذلك عندى: أن معاوية سمع من ابن عباس هذا الحديث، فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتيل الذي قتل، فقال: كيف يفشي عليه ولم يكن علم به، ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلي الذي حضر ذلك، فغضب ابن عباس، فأخذ بيد معاوية، فانطلق به إلى سعد بن مالك الزهري، فقال له: يا أبا إسحاق، هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ρ عن قتيل موسى الذي قتل من آل فرعون، الإسرائيلي الذي أفشى عليه أم الفرعوني؟ قال: إنما أفشى عليه الفرعوني بما سمع الإسرائيلي الذى شهد ذلك وحضره. هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائي، وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيرهما من حديث يزيد بن هارون، والأشبه، والله أعلم، أنه موقوف، وكونه مرفوعًا فيه نظر، وغالبه متلقى من الإسرائيليات، وفيه شيء يسير مصرح برفعه في أثناء الكلام، وفي بعض ما فيه نظر ونكارة، والأغلب أنه كلام كعب الأحبار، وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك، والله أعلم.

بناء قبة الزمان

قال أهل الكتاب: وقد أمر الله موسى عليه السلام بعمل قبة من خشب الشمشاز وجلود الانعام وشعر الأغنام، وأمر بزينتها بالحرير

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المصبغ والذهب والفضة، على كيفيات مفصلة عند أهل الكتاب، ولها عشر سرادقات، طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعًا، وعرضه أربعة أذرع، ولها أربعة أبواب، وأطناب من حرير ودمقس مصبغ، وفيها رفوف وصفائح من ذهب وفضة، ولكل زاوية بابان، وأبواب أخر كبيرة، وستور من حرير مصبغ، وغير ذلك مما يطول ذكره. وبعمل تابوت من خشب الشمشار يكون طوله ذراعين ونصفا، وعرضه ذراعين، وارتفاعه ذراعا ونصفا، ويكون مضببًا بذهب خالص من داخله وخارجه، وله أربع حلق في أربع زواياه، ويكون على حافتيه كروبيان من ذهب - يعنون صفة ملكين بأجنحة، وهما متقابلان، صفة رجل اسمه بصليال - وأمراه أن يعمل مائدة من خشب الشمشار، طولها ذراعًا، وعرضها ذراع ونصف، لها ضباب ذهب، وأكليل ذهب بشفة مرتفعة بإكليل من ذهب، وأربع حلق من نواحيها من ذهب، معذرة في مثل الرمان، من خشب ملبس ذهبًا واعمل صحافًا، ومصافي وقصاعًا على المائدة، واصنع منارة من الذهب، دُلى فيها ست قصبات من ذهب من كل جانب ثلاثة، على كل قصبة ثلاث سرج، وليكن في المنارة أربع قناديل، ولتكن هي وجميع هذه الآنية من قنطار من ذهب، صنع ذلك بصليال أيضًا، وهو الذي عمل المذبح أيضًا، ونصب هذه القبة أول يوم من سنتهم، وهو أول يوم من الربيع، ونصب تابوت الشهادة وهو، والله أعلم، المذكور في قوله تعالى: { إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين} وقد بسط هذا الفصل في كتابهم مطولاً جدًا، وفيه شرائع لهم وأحكام، وصفة قربانهم وكيفيته، وفيه: أن قبة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل، الذي هو متقدم على مجيء بيت المقدس، وأنها كانت لهم كالكعبة يصلون فيها وإليها ويتقربون عندها، وأن موسى عليه السلام كان إذا دخلها يقفون عندها، وينزل عمود الغمام على بابها، فيخرون عند ذلك سجدًا لله عز وجل، ويكلم الله موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذي هو نور، ويخاطبه ويناجيه ويأمره وينهاه، وهو واقف عند التابوت

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

صامد إلى ما بين الكروبين، فإذا فصل الخطاب يخبر بني إسرائيل بما أوحاه الله عز وجل إليه من الأوامر والنواهي، وإذا تحاكموا إليه في شيء ليس عنده من الله فيه شيء يجيء إلى قبة الزمان ويقف عند التابوت ويصمد لما بين ذينك الكروبين، فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة، وقد كان هذا مشروعًا لهم في زمانهم، أعني استعمال الذهب والحرير المصبغ واللآلىء في معبدهم وعند مصلاهم، فأما في شريعتنا فلا، بل قد نهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها لئلا تشغل المصلين، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما وسع في مسجد رسول الله ρ للذي وكله على عمارته: ابن للناس ما يكنهم، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس. وقال ابن عباس: لنزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسهم. وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه، فهذه الأمة غير مشابهة من كان قبلهم من الأمم، إذ جمع الله همهم في صلاتهم على التوجه إليه والإقبال عليه، وصان أبصارهم وخواطرهم عن الإشتغال والتفكر في غير ما هم بصدده من العبادة العظيمة، فلله الحمد والمنة.

وقد كانت قبة الزمان هذه مع بني إسرائيل في التيه يصلون إليها، وهي قبلتهم وكعبتهم، وإمامهم كليم الله موسى عليه السلام، ومقدم القربان أخوه هارون عليه السلام، فلما مات هارون ثم موسى عليهما السلام استمرت بنو هارون في الذي كان يليه أبوهم من أمر القربان، وهو فيهم إلى الآن، وقام بأعباء النبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعده، فتاه يوشع بن نون عليه السلام، وهو الذي دخل بهم بيت المقدس، كما سيأتي بيانه، والمقصود هنا: أنه لما استقرت يده على البيت المقدس نصب هذه القبة على صخرة بيت المقدس، فكانوا يصلون إليها، فلما بادت صلوا إلى محلتها وهي الصخرة، فلهذا كانت قبلة الأنبياء بعده إلى زمان رسول الله ρ ، وقد صلى إليها رسول الله ρ قبل الهجرة، وكان يجعل الكعبة بين يديه، فلما هاجر أمر بالصلاة إلى بيت المقدس، فصلى إليها ستة عشر، وقيل: سبعة عشر شهرا، ثم حولت القبلة إلى الكعبة، وهي قبلة إبراهيم في شعبان سنة ثنتين في وقت صلاة العصر، وقيل: الظهر، كما بسطنا ذلك في التفسير

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عند قوله تعالى: { سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها} إلى قوله: { قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام} الآيات.

قصة قارون مع موسى عليه السلام

قال الله تعالىفي سورة القصص: { إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) } .

قال الأعمش عن المنهال بن عمرو بن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كان قارون ابن عم موسى، وكذا قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن الحرث بن نوفل وسماك ابن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج، وزاد فقال: هو قارون بن يصهر بن قاهث. وموسى بن عمران بن هافث، قال ابن جريج: وهذا قول أكثر أهل العلم أنه كان ابن عم موسى، ورد قول ابن إسحاق: إنه كان عم موسى. قال قتادة: وكان يسمى النور، لحسن صوته بالتوراة، ولكن

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عدو الله نافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي لكثرة ماله. وقال شهر بن حوشب: زاد في ثيابه شبرًا طولاً ترفعًا على قومه. وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزه، حتى أن مفاتيحه كان يثقل حملها على الفئام من الرجال الشداد، وقد قيل: إنها كانت من الجلود، وإنها كانت تحمل على ستين بغلا، فالله أعلم.

وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين: { لا تفرح} أي لا تبطر، بما أعطيت وتفخر على غيرك { إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة} يقولون: لتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله في الدار الآخرة، فإنه خير وأبقى، ومع هذا: { لا تنس نصيبك من الدنيا} أي وتناول منها بمالك ما أحل الله لك، فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال { وأحسن كما أحسن الله إليك} أي وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارئهم إليك { ولا تبغ الفساد في الأرض} أي ولا تسيء إليهم، ولا تفسد فيهم، فتقابلهم ضد ما أمرت فيهم، فيعاقبك ويسلبك ما وهبك { إن الله لا يحب المفسدين} فما كان جواب قومه لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن { قال إنما أوتيته على علم عندى} يعني أنا لا أحتاج إلى استعمال ما ذكرتم، ولا إلى ما إليه أشرتم، فإن الله إنما أعطاني هذا لعلمه أني أستحقه، وأني أهل له، ولولا أني حبيب إليه وحظي عنده لما أعطاني ما أعطاني، قال الله تعالى ردا عليه وما ذهب إليه: { أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون} أي قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالاً وأولادًا، فلو كان ما قال صحيحًا، لم نعاقب أحدًا ممن كان أكثر مالاً منه، ولم يكن ماله دليلاً على محبتنا له واعتنائنا به، كما قال تعالى: { وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفي إلا من آمن وعمل صالحا}، وقال تعالى: { أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون} وهذا الرد عليه يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله: { إنما أوتيته على علم عندى}

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله في جمع الأموال فليس بصحيح، لأن الكيمياء تخييل وصبغة لا تحيل الحقائق ولا تشابه صنعة الخالق، والاسم الأعظم لا يصعد الدعاء به من كافر به، وقارون كان كافرًا في الباطن منافقًا في الظاهر، ثم لا يصح جوابه لهم بهذا على هذا التقدير، ولا يبقى بين الكلامين تلازم، وقد وضحنا هذا في كتابنا التفسير، ولله الحمد.

قال الله تعالى: { فخرج على قومه في زينته} ذكر كثير من المفسرين أنه خرج في تجمل عظيم من ملابس ومراكب وخدم وحشم، فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا تمنوا أن لو كانوا مثله، وغبطوه بما عليه وله، فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح الزهاد الألباء، قالوا لهم: { ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا} أي ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى، قال الله تعالى: { ولا يلقاها إلا الصابرون} أي وما يلقي هذه النصيحة وهذه المقالة وهذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية إلا من هدى الله قلبه، وثبت فؤاده وأيد لبه وحقق مراده، وما أحسن ما قال بعض السلف: إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند حلول الشهوات، قال الله تعالى: { فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين} لما ذكر تعالى خروجه في زينته واختياله فيها وفخره على قومه بها قال: { فخسفنا به وبداره الأرض} كما روى البخاري من حديث الزهري عن سالم، عن أبيه، عن النبي ρ قال: **(بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة)**. ثم رواه البخاري من حديث جرير بن زيد عن سالم، عن أبي هريرة، عن النبي ρ نحوه. وقد ذكر ابن عباس والسدى: أن قارون أعطي امرأة بغيًا مالاً على أن تقول لموسى عليه السلام وهو في ملأ من الناس إنك فعلت بي كذا وكذا، فيقال: إنها قالت له ذلك، فأرعد من الفرق، وصلى ركعتين،

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثم أقبل عليها فاستحلفها من ذلك على ذلك، وما حملك عليه؟ فذكرت أن قارون هو الذي حملها على ذلك، واستغفرت الله وتابت إليه، فعند ذلك خر موسى لله ساجدًا، ودعا الله على قارون، فأوحى الله إليه أني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره، فكان ذلك، فالله أعلم، وقد قيل: إن قارون لما خرج على قومه في زينته مر بجحفله وبغاله وملابسه على مجلس موسى عليه السلام، وهو يذكر قومه بأيام الله، فلما رآه الناس انصرفت وجوه كثير من الناس ينظرون إليه، فدعاه موسى عليه السلام، فقال له: ما حملك على هذا؟ فقال: يا موسى، أما لئن كنت فُضلت عليّ بالنبوة فلقد فضلت عليك بالمال، ولئن شئت لتخرجن، فلتدعون علي ولأدعون عليك، فخرج، وخرج قارون في قومه، فقال له موسى: تدعو أو أدعو؟ قال: أدعو أنا، فدعى قارون، فلم يجب في موسى، فقال موسى: أدعو؟ قال: نعم، فقال موسى: اللهم مر الأرض فلتطعني اليوم، فأوحى الله إليه: إني قد فعلت، فقال موسى: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى أقدامهم، ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى ركبهم، ثم إلى مناكبهم، ثم قال: أقبلي بكنوزهم وأموالهم، فأقبلت بها حتى نظروا إليها، ثم أشار موسى بيده فقال: اذهبوا بني لاوي، فاستوت بهم الأرض. وقد روى عن قتادة أنه قال: يخسف بهم كل يوم قامة إلى يوم القيامة. وعن ابن عباس أنه قال: خسف بهم إلى الأرض السابعة. وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا إسرائيليات كثيرة، أضربنا عنها صفحًا، وتركناها قصدًا.

وقوله تعالى: { فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين} لم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره، كما قال: { فماله من قوة ولا ناصر} ولما حل به ما حل من الخسف، وذهاب الأموال، وخراب الدار، وإهلاك النفس والأهل والعقار، ندم من كان تمنى مثل ما أوتي، وشكروا الله تعالى الذي يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون، ولهذا قالوا: { لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون} . وقد تكلم أهل العلم عن لفظ: (ويك)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

في تفاسيرهم. وقد قال قتادة: ويكأن بمعنى: ألم تر أن. وهذا قول حسن من حيث المعنى، والله أعلم، ثم أخبر تعالى أن { الدار الآخرة } وهي دار القرار، وهي الدار التي يغبط من أعطيها، ويعزي من حرمها، إنما هي معدة للذين لا يريدون علوًا في الأرض ولا فسادًا، فالعلو هو: التكبر والفخر والأشر والبطر، والفساد هو: عمل المعاصي اللازمة والمتعدية من أخذ أموال الناس وإفساد معايشهم والإساءة إليهم، وعدم النصح لهم، ثم قال تعالى: { والعاقبة للمتقين} وقصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر، لقوله:{ فخسفنا به وبداره الأرض} فإن الدار ظاهرة في البنيان، وقد تكون بعد ذلك في التيه، وتكون الدار عبارة عن المحلة التي تضرب فيها الخيام، كما قال عنترة:

يا دارا عبلــة بالجــواء تكلمــي وعمي صباحـا دار عبلة واسلمـي

والله أعلم. وقد ذكر الله تعالى مذمة قارون في غير ما آية من القرآن قال الله: { ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب}، وقال تعالى في سورة العنكبوت، بعد ذكر عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان: { ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين * فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون}، فالذي خسف به الأرض قارون، كما تقدم، والذي أغرق فرعون وهامان وجنودهما إنهم كانوا خاطئين.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا سعيد، حدثنا كعب بن علقمة، عن عيسى بن هلال الصدفي، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ρ أنه ذكر الصلاة يوما فقال: **(من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم**

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف). انفرد به أحمد رحمه الله.

باب فضائل موسى عليه السلام وشمائله وصفاته ووفائه

قال الله تعالى في سورة مريم: { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً (٥٣) } .. وقال تعالى: { قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ}، (الأعراف:١٤٤).

وتقدم في الصحيحين عن رسول الله ρ أنه قال: **(لا تفضلوني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشا بقائمة العرش، فلا أدري أصعق فأفاق قبلي؟ أم جوزي بصعقة الطور؟)**. وقدمنا أنه من رسول الله ρ من باب الهضم والتواضع، وإلا فهو صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، قطعًا جزما لا يحتمل النقيض، وقال تعالى: { إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط} إلى أن قال: { ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما}، وقال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها}.

قال الإمام أبو عبد الله البخاري: حدثنا إسحاق بن ابراهيم بن روح بن عبادة، عن عوف، عن الحسن ومحمد وخلاس، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ρ : **(إن موسى كان رجلاً حييًا ستيرًا، لا يرى جلده شيء استحياء منه، فأذاه من أذاه من بني إسرائيل، فقالوا:**

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص أو أدرة، وإما آفة، وأن الله عز وجل أراد أن يبرأه مما قالوا لموسى، فخلا يومًا وحده فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وأن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله، وبرأه مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا، قال فذلك قوله عز وجل: { يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها}... وقد رواه الإمام أحمد من حديث عبد الله ابن شقيق وهمام بن منبه، عن أبي هريرة به. وهو في الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمر، عن همام عنه به. ورواه مسلم من حديث عبد الله بن شقيق العقيلي عنه.

قال بعض السلف: كان من وجاهته أنه شفع في أخيه عند الله وطلب منه أن يكون معه وزيرًا فأجابه الله إلى سؤاله، وأعطاه طلبته، وجعله نبيا، كما قال: { ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا}، ثم قال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، حدثنا الأعمش سألت أبا وائل، قال: سمعت عبد الله، قال: قسم رسول الله ρ قسمًا، فقال رجل: إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي ρ فغضب، حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: **(يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر)**. وكذا رواه مسلم من غير وجه عن سليمان بن مهران الأعمش به. وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد ابن حجاج سمعت إسرائيل بن يونس، عن الوليد بن أبي هاشم، مولى لهمدان، عن زيد ابن أبي زائد، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ρ لأصحابه: **(لا يبلغني أحد عن أحد شيئا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر)**. قال: وأتى رسول الله ρ مال، فقسمه، قال: فمررت برجلين، وأحدهما يقول لصاحبه: والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله، ولا الدار الآخرة، فثبت حتى سمعت ما قالا، ثم أتيت

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

رسول الله، فقلت: يا رسول الله، إنك قلت: لنا لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئا، وإني مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا، فاحمر وجه رسول الله ρ وشق عليه، ثم قال: **(دعنا منك، فقد أوذي موسي أكثر من ذلك فصبر)**.

وهكذا رواه أبو داود والترمذي من حديث إسرائيل عن الوليد بن أبي هاشم به. وفي رواية للترمذي ولأبي داود من طريق ابن عبد، عن إسرائيل، عن السدي، عن الوليد به. وقال الترمذى: غريب من هذا الوجه. وقد ثبت في الصحيحين في أحاديث الإسراء: (أن رسول الله ρ مر بموسى وهو قائم يصلي في قبره). ورواه مسلم عن أنس. وفي الصحيحين من رواية قتادة، عن أنس، عن مالك بن صعصعة، عن النبي ρ : **(أنه مر ليلة أسري به بموسى في السماء السادسة، فقال له جبريل: هذا موسى، فسلم عليه، قال: فسلمت عليه، فقال: مرحبًا بالنبي الصالح، والأخ الصالح، فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلامًا بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي)**، وذكر إبراهيم في السماء السابعة، وهذا هو المحفوظ. وما وقع في حديث شريك بن أبي نمر عن أنس: من أن إبراهيم في السادسة، وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله، فقد ذكر غير واحد من الحفاظ: أن الذي عليه الجادة: أن موسى في السادسة، وإبراهيم في السابعة، وأنه مسند ظهره إلى البيت المعمور، الذي يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة، ثم لا يعودون إليه، آخر ما عليهم.

واتفقت الروايات كلها على أن الله تعالى لما فرض على محمد ρ وأمته خمسين صلاة في اليوم والليلة، فمر بموسى، قال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك، فإني قد عالجت بني إسرائيل قبلك أشد المعالجة، وأن أمتك أضعف أسماعًا وأبصارًا وأفئدة، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل، ويخفف عنه في كل مرة، حتى صارت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة. وقال الله تعالى: هي خمس وهي خمسون، أي بالمضاعفة، فجزى الله عنا محمدًا ρ خيرًا، وجزى الله عنا موسى عليه السلام خيرًا.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقال البخاري: حدثنا مسدد، حدثنا حصين بن نمير، عن حصين بن عبد الرحمن، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: خرج علينا رسول الله ρ يومًا، فقال: **(عرضت على الأمم، ورأيت سوادًا كثيرًا سد الأفق، فقيل: هذا موسى في قومه)**. هكذا روى البخاري هذا الحديث هاهنا مختصرًا، وقد رواه الإمام أحمد مطولاً، فقال: حدثنا شريح، حدثنا هشام، حدثنا حصين بن عبد الرحمن، قال: كنت عند سعيد بن جبير، فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ قلت: أنا، ثم قلت: إني لم أكن في صلاة، ولكن لدغت، قال: وكيف فعلت؟ قلت: استرقيت، قال: وما حملك على ذلك؟ قال: قلت: حديث حدثناه الشعبي عن بريدة الأسلمي، أنه قال: **(لا رقية إلا من عين أو حمة)**. فقال سعيد، يعني ابن جبير: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ثم قال: حدثنا ابن عباس عن النبي ρ قال: **(عرضت على الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي معه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فقلت: هذه أمتي، فقيل: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق فإذا سواد عظيم، ثم قيل: انظر إلى هذا الجانب، فإذا سواد عظيم، فقيل: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب)**، ثم نهض رسول الله ρ فدخل، فخاض القوم في ذلك، فقالوا: من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب؟ فقال: بعضهم لعلهم الذين صحبوا النبي ρ ، وقال بعضهم: لعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئًا قط، وذكروا أشياء، فخرج إليهم رسول الله ρ فقال: **(ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه؟)** فأخبروه بمقالتهم، فقال: **(هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون)**، فقام عكاشة بن محيصن الأسدى، فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ قال: **(أنت منهم)**، ثم قام آخر، فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ فقال: **(سبقك بها عكاشة)**. وهذا الحديث له طرق كثيرة جدًا وهو في الصحاح والحسان وغيرها.

وقد ذكر الله تعالى موسى عليه السلام في القرآن كثيرًا وأثنى عليه، وأورد قصته في كتابه العزيز مرارًا، وكررها كثيرًا، مطولة

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ومبسوطة ومختصرة، وأثنى عليه بليغًا، وكثيرًا ما يقرنه الله ويذكره، ويذكر كتابه مع محمد ρ وكتابه، كما قال في سورة البقرة: { ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون}، وقال تعالى:{ آلم (١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤)}، وقال تعالى في سورة الأنعام: { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) }.. فاثنى تعالى على التوراة، ثم مدح القرآن العظيم مدحًا عظيمًا، وقال تعالى في آخرها: { ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) }، (الأنعام).

وقال تعالى في سورة المائدة: { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) }، إلى أن قال تعالى: { وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) }.. فجعل القرآن حاكمًا على سائر الكتب غيره، وجعله مصدقًا لها، ومبينًا ما وقع فيها من التحريف والتبديل، فإن أهل الكتاب استحفظوا على ما بأيديهم من الكتب، فلم يقدروا على حفظها، ولا على ضبطها وصونها، فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم، لسوء فهومهم، وقصورهم في علومهم، ورداءة قصودهم، وخيانتهم لمعبودهم، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، ولهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البين على الله وعلى رسوله ما لا يحد ولا يوصف، وما لا يوجد مثله ولا يعرف.

وقال تعالى في سورة الأنبياء: { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ(٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٠) }.. وقال الله تعالى في سورة القصص: { فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨)قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) }، فأثنى الله على الكتابين، وعلى الرسولين، عليهما السلام، وقالت الجن لقومهم: { إنا سمعنا كتابًا أنزل من بعد موسى }، وقال ورقة بن نوفل، لما قص عليه رسول الله ρ خبر ما رأى من أول الوحى، وتلا عليه: { إقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق* اقرأ وربك الأكرم *الذي علم بالقلم* علم الإنسان ما لم يعلم*}، قال: سبوح سبوح هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران.

وبالجملة: فشريعة موسى عليه السلام كانت عظيمة، وأمته كانت أمة كثيرة، ووجد فيها أنبياء وعلماء، وعباد وزهاد وألباء، وملوك وأمراء وسادات وكبراء، لكنهم كانوا فبادوا وتبدلوا كما بدلت شريعتهم، ومسخوا قردةً وخنازير، ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم،

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها، ولكن سنورد ما فيه مقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها، إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

حجته عليه السلام إلى البيت العتيق

قال الإمام أحمد: حدثنا هشام، حدثنا داود بن أبي هند، عن أبي العالية، عن ابن عباس، أن رسول الله ρ مر بوادي الأزرق، فقال: **(أي وادٍ هذا؟)** قالوا: وادي الأزرق، قال: **(كأني أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية، وله جؤار إلى الله عز وجل بالتلبية)**، حتى أتي على ثنية هرشاء، فقال: (أي ثنية هذه؟) قالوا: هذه ثنية هرشاء، قال: **(كأني انظر إلى يونس بن متى، على ناقة حمراء، عليه جبة من صوف، خطام ناقته خلبة** - قال هشيم: يعني ليفا - **وهو يلبي)**.

أخرجه مسلم من حديث داود بن أبي هند به. وروى الطبراني عن ابن عباس مرفوعا: **(إن موسى حج على ثور أحمر)** وهذا غريب جدًا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن ابن عون، عن مجاهد، قال: كنا عند ابن عباس، فذكروا الدجال، فقال: إنه مكتوب بين عينيه: (ك ف ر)، قال: ما يقولون؟ قال: يقولون مكتوب بين عينيه ك ف ر، فقال ابن عباس: لم أسمعه قال ذلك، ولكن قال: **(أمَّا إبراهيم: فانظروا إلى صاحبكم، وأما موسى: فرجل آدم، جعد الشعر، على جمل أحمر، مخطوم بخلبة، كأني أنظر إليه وقد انحدر من الوادي يلبي)**، قال هشيم: الخلبة الليف، ثم رواه الإمام أحمد عن أسود، عن إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ρ **(رأيت عيسى ابن مريم وموسى وإبراهيم، فأما عيسى فأبيض جعد عريض الصدر، وأما موسى: فآدم جسيم)**، قالوا: فإبراهيم؟ قال: **(انظروا إلى صاحبكم)**.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا شيبان، قال: حدث قتادة عن أبي العالية، حدثنا ابن عم نبيكم ابن عباس، قال: قال نبي الله ρ :(**رأيت ليلة أسري بي: موسى بن عمران رجلاً طوالاً جعدًا، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة**

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

والبياض، سبط الرأس)، وأخرجاه من حديث قتادة به. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، قال الزهري: وأخبرني سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ρ **(حين أسري بي لقيت موسى، فنعَته، فقال رجل قال: حسبته قال: مضطرب، رجل الرأس، كأنه من رجال شنوءة - ولقيت عيسى فنعته رسول الله ρ ، فقال: ربعة، أحمر، كأنما خرج من ديماس - يعني حمامًا - قال: ورأيت إبراهيم، وأنا أشبه ولده به)**. الحديث وقد تقدم غالب هذه الأحاديث في ترجمة الخليل.

ذكر وفاته عليه السلام

قال البخاري في صحيحه: (وفاة موسى عليه السلام) حدثنا يحيى بن موسى، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فلما جاءه صكه، فرجع إلى ربه عز وجل، فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، قال: ارجع إليه، فقل له: يضع يده على متن ثور، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة، قال: أي رب، ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن، قال: فسأل الله عز وجل أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، قال أبو هريرة: فقال رسول الله ρ : **(فلو كنت ثَمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر)**. قال: وأنبأنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة، عن النبي ρ نحوه. وقد روى مسلم الطريق الأول من حديث عبد الرزاق به. ورواه الإمام أحمد من حديث حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار، عن أبي هريرة مرفوعًا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس، يعني سليم بن جبير، عن أبي هريرة، قال الإمام أحمد: لم يرفعه، قال: جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فقال: أجب ربك، فلطم موسى عين ملك الموت، ففقأها، فرجع الملك إلى الله، فقال: إنك بعثتني إلى عبد لك لا يريد الموت، قال: وقد فقأ عيني، قال: فرد الله عينه، وقال: ارجع إلى عبدي، فقل له: ألحياة تريد؟ فإن كنت تريد

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الحياة فضع يدك على متن ثور، فما وارت يدك من شعره فإنك تعيش بها سنة، قال: ثم مه؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن يا رب من قريب. تفرد به أحمد، وهو موقوف بهذا اللفظ. وقد رواه ابن حبان في صحيحه من طريق معمر عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال معمر: وأخبرني من سمع الحسن، عن رسول الله فذكره. ثم استشكله ابن حبان، وأجاب عنه بما حاصله: أن ملك الموت لما قال له هذا لم يعرفه، لمجيئه له على غير صورة يعرفها موسى عليه السلام، كما جاء جبريل في صورة أعرابي، وكما وردت الملائكة على إبراهيم ولوط في صورة شباب، فلم يعرفهم إبراهيم ولا لوط أولاً، وكذلك موسى لعله لم يعرفه لذلك، ولطمه ففقأ عينه لأنه دخل داره بغير إذنه، وهذا موافق لشريعتنا في جواز فقء عين من نظر إليك في دارك بغير إذن، ثم اورد الحديث من طريق عبد الرزاق عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، قال:قال رسول الله ρ **(جاء ملك الموت إلى موسى ليقبض روحه، قال له: أجب ربك، فلطم موسى عين ملك الموت، ففقأ عينه)**. وذكر تمام الحديث، كما أشار إليه البخاري، ثم تاوله على أنه لما رفع يده ليلطمه قال له: أجب ربك. وهذا التأويل لا يتمشى على ما ورد به اللفظ من تعقيب قوله: أجب ربك، بلطمه، ولو استمر على الجواب الأول لتمشى له، وكأنه لم يعرفه في تلك الصورة، ولم يحمل قوله هذا على أنه مطابق، إذا لم يتحقق في الساعة الراهنة أنه ملك كريم، لأنه كان يرجو أمورًا كثيرة، كان يحب وقوعها في حياته، من خروجه من التيه ودخولهم الأرض المقدسة، وكان قد سبق في قدرة الله أنه عليه السلام يموت في التيه بعد هارون أخيه، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

وقد زعم بعضهم أن موسى عليه السلام هو الذي خرج بهم من التيه، ودخل بهم الأرض المقدسة، وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين، ومما يدل على ذلك قوله لما اختار الموت: (رب أدنني إلى الأرض المقدسة رمية حجر)، ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك، ولكن لما كان مع قومه بالتيه وحانت وفاته عليه السلام، أحب أن يتقرب إلى الأرض التي هاجر إليها وحث قومه عليها، ولكن حال

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بينهم وبينها القدر رمية بحجر، ولهذا قال سيد البشر، ورسول الله إلى أهل الوبر والمدر: **(فلو كنت ثم لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر)**. وقال الإمام: حدثنا عفان، حدثنا حماد، حدثنا ثابت وسليمان التيمي، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ρ قال: **(لما أسري بي مررت بموسى وهو قائم يصلى في قبره عند الكثيب الأحمر)**. ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به. وقال السدي عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عباس وعن مرة، عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة، قالوا: ثم إن الله تعالى أوحى إلى موسى: إني متوف هارون، فائت به جبل كذا وكذا، فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل، فإذا هم بشجرة لم تر شجرة مثلها، وإذا هم ببيت مبني، وإذا هم بسرير عليه فرش، وإذا فيه ريح طيبة، فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل، والبيت وما فيه، أعجبه، قال: يا موسى، إني أحب أن أنام على هذا السرير، قال له موسى: فنم عليه، قال: إني أخاف أن يأتى رب هذا البيت فيغضب عليّ، قال له: لا ترهب، أنا أكفيك رب هذا البيت، فنم، قال: يا موسى، نم معى، فإن جاء رب هذا البيت غضب علىّ وعليك جميعًا، فلما ناما، أخذ هارون الموت، فلما وجد حسه قال: يا موسى، خدعتني، فلما قبض، رفع ذلك البيت، وذهبت تلك الشجرة، ورفع السرير به إلى السماء، فلما رجع موسى إلى قومه وليس معه هارون، قالوا: فإن موسى قتل هارون، وحَسَدَه حب بني إسرائيل له، وكان هارون أكف عنهم وألين لهم من موسى، وكان في موسى بعض الغِلْظَة عليهم، فلما بلغه ذلك قال لهم: ويحكم، كان أخى، أفتروني أقتله؟ فلما أكثروا عليه، قام فصلى ركعتين، ثم دعا الله، فنزل السرير، حتى نظروا إليه بين السماء والأرض، ثم إن موسى عليه السلام بينما هو يمشى ويوشع فتاه، إذ أقبلت ريح سوداء، فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة، فالتزم موسى، وقال: تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبي الله، فاستل موسى عليه السلام من تحت القميص، وترك القميص في يدي يوشع، فلما جاء يوشع بالقميص آخذته بنو إسرائيل، وقالوا: قتلت نبي الله، فقال: لا، والله ما قتلته، ولكنه أستل منى، فلم يصدقوه وأرادوا قتله، قال: فإذا لم

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تصدقوني فأخروني ثلاثة أيام، فدعا الله، فأتى كل رجل ممن كان يحرسه في المنام، فأخبر أن يوشع لم يقتل موسى، وإنا قد رفعناه إلينا فتركوه، ولم يبق أحد ممن أبى أن يدخل قرية الجبارين مع موسى إلا مات، ولم يشهد الفتح، وفي بعض هذا السياق نكارة وغرابة، والله أعلم. وقد قدمنا: أنه لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى، سوى يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا، وهو زوج مريم أخت موسى وهارون، وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم، اللذان أشارا على ملأ بني إسرائيل بالدخول عليهم. وذكر وهب بن منبه: أن موسى عليه السلام مر بملأ من الملائكة يحفرون قبرًا فلم ير أحسن منه ولا أنضر ولا أبهج، فقال: يا ملائكة الله، لمن تحفرون هذا القبر؟ فقالوا: لعبد من عباد الله كريم، فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد، فادخل هذا القبر، وتَمَدَّدْ فيه، وتوجه إلى ربك، وتنفَّس أسهل تنفُّس، ففعل ذلك، فمات صلوات الله وسلامه عليه، فصلت عليه الملائكة، ودفنوه.

وذكر أهل الكتاب وغيرهم: أنه مات وعمره مائة وعشرون سنة.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أمية بن خالد ويونس، قالا: حدثنا حماد بن سلمة، عن عمار بن أبي عمار، عن أبي هريرة، عن النبي ρ - قال يونس: رفع هذا الحديث إلى النبي ρ - قال: **(كان ملك الموت يأتى الناس عَيَانا، قال: فأتى موسى عليه السلام فلطمه، ففقأ عينه، فأتى ربه، فقال: يا رب عبدك موسى فقأ عيني، ولولا كرامته عليك لعتبت عليه - وقال يونس لشققت عليه - قال له: اذهب إلى عبدى، فقل له: فليضع يده على جلد، أو مسك، ثور، فله بكل شعرة وارت يده سنة، فأتاه، فقال له، فقال: ما بعد هذا؟ قال: الموت، قال: فالآن. قال: فشمه شمة، فقبض روحه.)** قال يونس: فرد الله عليه عينه، وكان يأتى الناس خفية. وكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن مصعب بن المقدام عن حماد بن سلمة به، فرفعه أيضًا.

نبوة يوشع وقيامه بأعباء بني إسرائيل بعد موسى وهارون

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

هو: يوشع بن نون بن أفراثيم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام، وأهل الكتاب يقولون: يوشع بن عم هود، وقد ذكره الله تعالى في القرآن غير مصرح باسمه في قصة الخضر، كما تقدم من قوله: { وإذ قال موسى لفتاه} { فلما جاوزا قال لفتاه} وقدمنا ما ثبت في الصحيح من رواية أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ρ : **(من أنه يوشع بن نون)**. وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب، فإن طائفة منهم، وهم السامرة، لا يقرون بنبوة أحد بعد موسى إلا يوشع بن نون، لأنه مصرح به في التوراة، ويكفرون بما وراءه، وهو الحق من ربهم، فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

وأما ما حكاه ابن جرير وغيره ومن المفسرين، عن محمد بن إسحاق: من أن النبوة حولت من موسى إلى يوشع في آخر عمر موسى، فكان موسى يلقى يوشع فيسأله ما أحدث الله من الأوامر والنواهي؟ حتى قال له: يا كليم الله، إني كنت لا أسألك عما يوحى الله إليك حتى تخبرني أنت ابتداء من تلقاء نفسك، فعند ذلك كره موسى الحياة وأحب الموت. ففي هذا نظر لأن موسى عليه السلام لم يزل الأمر والوحي والتشريع والكلام من الله إليه من جميع أحواله حتى توفاه الله عز وجل، ولم يزل معززًا مكرمًا مدللاً وجيهًا عند الله كما قدمنا في الصحيح من قصة فقئه عين ملك الموت، ثم بعثه الله إليه إن كان يريد الحياة، فليضع يده على جلد ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة يعيشها، قال: ثم ماذا؟ قال: الموت، قال: فالآن يا رب، وسأل الله أن يدنيه إلى بيت المقدس رمية بحجر. وقد أجيب إلى ذلك صلوات الله وسلامه عليه، فهذا الذى ذكره محمد بن إسحاق إن كان إنما يقوله من كتب أهل الكتاب، ففي كتابهم الذى يسمونه التوراة: أن الوحي لم يزل ينزل على موسى في كل حين يحتاجون إليه إلى آخر مدة موسى، كما هو المعلوم من سياق كتابهم، عند تابوت الشهادة في قبة الزمان، وقد ذكروا في السفر الثالث: أن الله أمر موسى وهارون أن يعدا بني إسرائيل على أسباطهم، وأن يجعلا على كل سبط من الاثني عشر أميرًا، وهو النقيب، وما ذاك إلا

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ليتأهبوا للقتال قتال الجبارين عند الخروج من التيه، وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنة. ولهذا قال بعضهم: إنما فقأ موسى عليه السلام عين ملك الموت لأنه لم يعرفه في صورته تلك، ولأنه كان قد أمر بأمر كان يرتجى وقوعه في زمانه، ولم يكن في قدر الله أن يقع ذلك في زمانه، بل في زمان فتاه يوشع بن نون عليه السلام.
كما أن رسول الله ρ كان قد أراد غزو الروم بالشام فوصل إلى تبوك، ثم رجع عامه ذلك في سنة تسع ثم حج في سنة عشر، ثم رجع فجهز جيش أسامة إلى الشام طليعة بين يديه، ثم كان على عزم الخروج إليهم امتثالا لقوله تعالى: { قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } ، (التوبة:٢٩).

ولما جهز رسول الله جيش أسامة توفي عليه الصلاة والسلام، وأسامة مخيم بالجرف فنفذه صديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضى الله عنه، ثم لما لم شعث جزيرة العرب وما كان دهى من أمر أهلها وعاد الحق إلى نصابه، جهز الجيوش يمنة ويسرة إلى العراق أصحاب كسرى ملك الفرس، وإلى الشام أصحاب قيصر ملك الروم، ففتح الله لهم ومكن لهم وبهم وملكهم نواصى أعدائهم.
وهكذا موسى عليه السلام كان الله قد أمره أن يجند بني إسرائيل وأن يجعل عليهم نقباء كما قال تعالى: { وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ }، (المائدة:١٢).. يقول لهم: لئن قمتم بما أوجبت عليكم، ولم تتكلوا عن القتال كما نكلتم أول مرة، لأجعلن ثواب هذه مكفرا لما وقع عليكم من عقاب تلك، كما قال تعالى لمن تخلف من الأعراب عن رسول الله ρ في غزوة الحديبية: { قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله اجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما}، وهكذا قال تعالى لبني إسرائيل: { فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل} ثم ذمهم تعالى على سوء صنيعهم ونقضهم مواثيقهم، كما ذم من بعدهم من النصارى على اختلافهم في دينهم وأديانهم.

والمقصود: أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بني إسرائيل ممن يحمل السلاح، ويقاتل ممن بلغ عشرين سنة فصاعدا، وأن يجعل على كل سبط نقيبًا منهم (السبط الأول): سبط روبيل، لأنه بكر يعقوب كان عدة المقاتلة منهم ستة وأربعين ألفا وخمسمائة، ونقيبهم منهم وهو: اليصور بن شديئورا، (السبط الثاني): سبط شمعون، وكانوا تسعة وخمسين ألفًا وثلاثمائة، ونقيبهم شلوميئيل بن هوريشداي، (السبط الثالث): سبط يهوذا، وكانوا أربعة وسبعين ألفا وستمائة، ونقيبهم نحشون بن عمينا داب، (السبط الرابع): سبط إيساخر، وكانوا أربعة وخمسين ألفا وأربعمائة، ونقيبهم نشائيل بن صوغر، (السبط الخامس): سبط يوسف عليه السلام، وكانوا أربعين ألفا وخمسمائة، ونقيبهم: يوشع بن نون، (السبط السادس): سبط ميشا، وكانوا أحدا وثلاثين ألفا ومائتين، ونقيبهم جمليئيل بن فدهصور، (السبط السابع): سبط بنيامين، وكانوا خمسة وثلاثين ألفا وأربعمائة، ونقيبهم أبيدن بن جدعون، (السبط الثامن): سبط حاد، وكانوا خمسة وأربعين ألفا وستمائة وخمسين رجلا، ونقيبهم إلياساف بن رعوئيل، (السبط التاسع): سبط أشير، وكانوا أحدًا وأربعين ألفا وخمسمائة، ونقيبهم فجعيئيل بن عكرن، (السبط العاشر): سبط دان، وكانوا اثنين وستين ألفا وسبعمائة، ونقيبهم أخيعزر ابن عمشداي، (السبط الحادي عشر): سبط نفتالى، وكانوا ثلاثة وخمسين ألفا وأربعمائة، ونقيبهم أخيرع بن عين، (السبط الثاني عشر): سبط زبولون، وكانوا سبعة وخمسين ألفا وأربعمائة، ونقيبهم الباب بن حيلون. هذا نص كتابهم الذى بأيديهم، والله أعلم. وليس منهم بنو لاوي، فأمر الله موسى أن لا يعدهم معهم، لأنهم موكلون بحمل قبة الشهادة وضربها ونصبها وحملها إذا ارتحلوا، وهم سبط

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

موسى وهارون عليهما السلام، وكانوا اثنين وعشرين ألفا من ابن شهر فما فوق ذلك. وهم في أنفسهم قبائل إلى كل قبيلة طائفة من قبة الزمان يحرسونها ويحفظونها ويقومون بمصالحها ونصبها وحملها وهم كلهم حولها ينزلون ويرتحلون أمامها ويمنتها وشمالها ووراءها.
وجملة ما ذكر من المقاتلة غير بني لاوي: خمسمائة ألف وأحد وسبعون ألفا وستمائة وستة وخمسون، لكن قالوا: فكان عدد بني إسرائيل ممن عمره عشرون سنة فما فوق ذلك ممن حمل السلاح ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وخمسين رجلا، سوى بني لاوي، وفي هذا نظر، فإن جميع الجمل المتقدمة إن كانت كما وجدنا في كتابهم لا تطابق الجملة التى ذكروها، والله أعلم، فكان بنو لاوي الموكلون بحفظ قبة الزمان يسيرون في وسط بني إسرائيل وهم القلب، ورأس الميمنة بنو روبيل، ورأس الميسرة بنو ران، وبنو نفتالى يكونون ساقه، وقرر موسى عليه السلام بأمر الله تعالى له الكهانة في بني هارون كما كانت لأبيهم من قبلهم، وهم ناداب وهو بكره، وأبيهو والعازر ويثمر.
والمقصود: أن بني إسرائيل لم يبق منهم أحد ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبارين الذين قالوا: { فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون} قاله الثوري عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس، وقاله قتادة وعكرمة، ورواه السدي عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة حتى قال ابن عباس وغيره من علماء السلف والخلف: ومات موسى وهارون قبله كلاهما في التيه جميعًا.
وقد زعم ابن إسحاق: أن الذي فتح بيت المقدس هو موسى، وإنما كان يوشع على مقدمته وذكر في مروره إليها قصة بلعام بن باعوراء الذى قال تعالى فيه: { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) }، (الأعراف).. وقد ذكرت

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قصته في التفسير، وأنه كان فيما قاله ابن عباس وغيره يعلم الاسم الأعظم، وأن قومه سألوه أن يدعو على موسى وقومه، فامتنع عليهم ولما ألحوا عليه ركب حمارة له ثم سار نحو معسكر بني إسرائيل، فلما أشرف عليهم ربضت به حمارته، فضربها حتى قامت فسارت غير بعيد وربضت، فضربها ضربا أشد من الأول، فقامت ثم ربضت، فضربها فقالت له: يا بلعام، أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا؟ أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم، فلم ينزع عنها فضربها حتى سارت به حتى أشرف عليهم من رأس جبل حسبان، ونظر إلى معسكر موسى وبني إسرائيل، فأخذ يدعو عليهم فجعل لسانه لا يطيعه إلا أن يدعو لموسى وقومه ويدعو على قوم نفسه فلاموه على ذلك، فاعتذر إليهم بأنه لا يجرى على لسانه إلا هذا، واندلع لسانه حتى وقع على صدره، وقال لقومه: ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة، ثم أمر قومه أن يزينوا النساء ويبعثوهن بالأمتعة يبعن عليهم ويتعرضن لهم حتى لعلهم يقعون في الزنا، فإنه متى زنى رجل منهم كفيتموهم، ففعلوا وزينوا نساءهم وبعثوهن إلى المعسكر فمرت امرأة منهم اسمها كستى برجل من عظماء بني إسرائيل، وهو زمري بن شلوم، يقال إنه: كان رأس سبط بني شمعون بن يعقوب، فدخل بها قبته، فلما خلا بها أرسل الله الطاعون على بني إسرائيل، فجعل يحوس فيهم، فلما بلغ الخبر إلى فنحاص بن العزار بن هارون أخذ حربته وكانت من حديد، فدخل عليهما القبة فانتظمهما جميعًا فيها، ثم خرج بهما على الناس والحربة في يده وقد اعتمد على خاصرته وأسندها إلى لحيته ورفعهما نحو السماء، وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك، ورفع الطاعون، فكان جملة من مات في تلك الساعة سبعين ألفا، والمقلل يقول: عشرين ألفا، وكان فنحاص بكر أبيه العزار بن هارون فلهذا يجعل بنو إسرائيل لولد فنحاص من الذبيحة اللية والذراع واللحى، ولهم البكر من كل أموالهم وأنفسهم. وهذا الذى ذكره ابن إسحاق من قصة بلعام صحيح قد ذكره غير واحد من علماء السلف، لكن لعله لما أراد موسى دخول بيت المقدس أول

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

مقدمه من الديار المصرية، ولعله مراد ابن إسحاق، ولكنه ما فهمه بعض الناقلين عنه. وقد قدمنا عن نص التوراة ما يشهد لبعض هذا، والله أعلم.

ولعل هذه قصة أخرى كانت في خلال سيرهم في التيه فإن في هذا السياق ذكر حسبان وهي بعيدة عن أرض بيت المقدس، أو لعله كان هذا لجيش موسى الذين عليهم يوشع بن نون حين خرج بهم من التيه قاصدًا بيت المقدس كما صرح به السدي، والله أعلم. وعلى كل تقدير فالذي عليه الجمهور: أن هارون توفي بالتيه قبل موسى أخيه بنحو من سنتين، وبعده موسى في التيه أيضًا، كما قدمنا، وأنه سأل ربه أن يقرب إلى بيت المقدس فأجيب إلى ذلك، فكان الذى خرج بهم من التيه وقصد بهم بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام، فذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ: أنه قطع بني إسرائيل نهر الأردن، وانتهى إلى أريحا، وكانت من أحصن المدائن سورًا وأعلاها قصورًا وأكثرها أهلاً فحاصرها ستة أشهر، ثم إنهم أحاطوا بها يومًا وضربوا بالقرون، يعني الأبواق، وكبروا تكبيرة رجل واحد فتفسخ سورها وسقط وجبة واحدة، فدخلوها وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم وقتلوا اثني عشر ألفا من الرجال والنساء، وحاربوا ملوكًا كثيرة، ويقال: إن يوشع ظهر على أحد وثلاثين ملكًا من ملوك الشام، وذكروا أنه انتهى محاصرته لها إلى يوم جمعة بعد العصر، فلما غربت الشمس أو كادت تغرب ويدخل عليهم السبت الذى جعل عليهم وشرع لهم ذلك الزمان، قال لها: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها عليّ، فحبسها الله عليه، حتى تمكن من فتح البلد، وأمر القمر فوقف عن الطلوع. وهذا يقتضي أن هذه الليلة كانت الليلة الرابعة عشرة من الشهر، والأول وهو قصة الشمس المذكورة في الحديث الذي سأذكره، وأما قصة القمر فمن عند أهل الكتاب، ولا ينافي الحديث بل فيه زيادة تستفاد فلا تصدق ولا تكذب، ولكن ذكرهم أن هذا في فتح أريحا فيه نظر، والأشبه والله أعلم، أن هذا كان في فتح بيت المقدس الذي هو المقصود الأعظم، وفتح أريحا كان وسيلة إليه، والله أعلم.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا أبو بكر، عن هشام، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ρ : **(إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالى سار إلى بيت المقدس)**. انفرد به أحمد من هذا الوجه، وهو على شرط البخاري، وفيه دلالة على أن الذى فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام لا موسى، وأن حبس الشمس كان في فتح بيت المقدس لا أريحا، كما قلنا، وفيه: أن هذا كان من خصائص يوشع عليه السلام، فيدل على ضعف الحديث الذى رويناه أن الشمس رجعت حتى صلى علي بن أبي طالب صلاة العصر بعد ما فاتته بسبب نوم النبي ρ على ركبته، فسأل رسول الله أن يردها عليه حتى يصلي العصر، فرجعت. وقد صححه على ابن صالح المصري، ولكنه منكر ليس في شيء من الصحاح ولا الحسان، وهو مما تتوفر الدواعي على نقله، وتفردت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لا يعرف حالها، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ρ : **(غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة، وهو يريد أن يبني بها ولما يبن، ولا آخر قد بنى بنيانًا ولم يرفع سقفها، ولا آخر قد اشترى غنما أو خلفات وهو ينتظر أولادها، فغزا فدنا من القرية حين صلى العصر، أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها عليّ شيئا، فحبست عليه، حتى فتح الله عليه، فجمعوا ما غنموا فأتت النار لتأكله، فأبت أن تطعمه، فقال: فيكم غلول، يعني من كل قبيلة رجل فبايعوه، فلصقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، وليتابعني قبيلتك فبايعته قبيلته، فلصق بيد رجلين أو ثلاثة، فقال: فيكم الغلول، أنتم غللتم فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب، قال: فوضعوه بالمال وهو بالصعيد، فأقبلت النار فأكلته، فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا، ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا)**. انفرد به مسلم من هذا الوجه. وقد روى البزار من طريق مبارك بن فضالة، عن عبيد الله، عن سعيد المقبري، عن

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أبي هريرة، عن النبي ρ نحوه. قال: ورواه محمد بن عجلان عن سعيد المقبري، قال: ورواه قتادة عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ρ .
والمقصود: أنه لما دخل بهم باب المدينة أمروا أن يدخلوها سجدا، أي ركعا متواضعين شاكرين لله عز وجل، على ما من به عليهم من الفتح العظيم، الذى كان الله وعدهم إياه، وأن يقولوا حال دخولهم حطة، أي حط عنا خطايانا التى سلفت من نكولنا الذى تقدم منا، ولهذا لما دخل رسول الله ρ مكة يوم فتحها دخلها وهو راكب ناقته وهو متواضع حامد شاكر، حتى أن عثنونه، وهو طرف لحيته، ليمس مورك رحله مما يطأطئ رأسه خضعانا لله عز وجل، ومعه الجنود والجيوش ممن لا يرى منه إلا الحدق ولاسيما الكتيبة الخضراء التى فيها رسول الله ρ ، ثم لما دخلها اغتسل، وصلى ثماني ركعات، وهى صلاة الشكر على النصر على المنصور من قولى العلماء، وقيل: إنها صلاة الضحى، وما حمل هذا القائل على قوله هذا إلا لأنها وقعت وقت الضحى، وأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا ما أمروا به قولا وفعلا دخلوا الباب يزحفون على استاههم، يقولون: حبة في شعرة، وفي رواية: حنطة في شعرة، وحاصله: أنهم بدلوا ما أمروا به واستهزءوا به كما قال تعالى حاكيا عنهم في سورة الأعراف وهى مكية: { وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) }، وقال في سورة البقرة وهى مدنية مخاطبا لهم: { وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) }، وقال الثوري عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس { وادخلوا الباب سجدا}

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال: ركعًا من باب صغير. رواه الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم، وكذا روى العوفي عن ابن عباس، وكذا روى الثوري عن ابن إسحاق، عن البراء، قال مجاهد والسدي والضحاك: والباب هو باب حطة من بيت إيلياء بيت المقدس. قال ابن مسعود: فدخلوا مقنعي رءوسهم ضد ما أمروا به، وهذا لا ينافي قول ابن عباس: أنهم دخلوا يزحفون على استاههم. وهكذا في الحديث الذى سنورده بعد، فإنهم دخلوا يزحفون وهم مقنعوا رءوسهم وقوله: { وقولوا حطة} الواو هنا حالية لا عاطفة، أي ادخلوا سجدا في حال قولكم: حطة. قال ابن عباس وعطاء والحسن وقتادة والربيع: أمروا أن يستغفروا.

قال البخاري: حدثنا محمد، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، عن ابن المبارك، عن معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي ρ قال: **(قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجدا، وقولوا: حطة، فدخلوا يزحفون على استاههم، فبدلوا، وقالوا: حطة حبة في شعرة)**. وكذا رواه النسائي من حديث ابن المبارك ببعضه. ورواه عن محمد بن إسماعيل ابن إبراهيم عن ابن مهدي به، موقوفًا. وقد قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ρ : **(قال الله لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجدا، وقولوا حطة، نغفر لكم خطاياكم، فبدلوا، فدخلوا الباب يزحفون على استاههم، فقالوا: حبة في شعرة)**. ورواه البخاري ومسلم والترمذي من حديث عبد الرزاق، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال محمد بن إسحاق: كان تبديلهم كما حدثني صالح بن كيسان، عن صالح، مولى التوأمة، عن أبي هريرة، وعمن لا أتهم عن ابن عباس أن رسول الله ρ قال: **(دخلوا الباب الذى أمروا أن يدخلوا فيه سجدًا يزحفون على استاههم، وهم يقولون: حنطة في شعيرة)**.

وقال أسباط عن السدي، عن مرة، عن ابن مسعود، قال في قوله: { فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم} قال: قالوا: (هطى سقاثا أزمة مزبا)، فهى في العربية: (حبة حنطة، حمراء، مثقوبة، فيها شعرة سوداء). وقد ذكر الله تعالى أنه عاقبهم على هذه المخالفة،

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بإرسال الرجز الذى أنزله عليهم، وهو الطاعون. كما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري عن عامر بن سعد، ومن حديث مالك عن محمد بن المنكدر، وسالم أبي النضر عن عامر بن سعد، عن أسامة بن زيد، عن رسول الله ρ أنه قال: **(إن هذا الوجع، أو السقم، رجز عذب به بعض الأمم قبلكم)**. وروى النسائي وابن أبي حاتم وهذا لفظه من حديث الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت، قالوا: قال رسول الله ρ : **(الطاعون رجز، عذاب عُذّب به من كان قبلكم)**. وقال الضحاك عن ابن عباس: الرجز العذاب. وكذا قال مجاهد وأبو مالك والسدي والحسن وقتادة. وقال أبو العالية: هو الغضب. وقال الشعبي: الرجز إما الطاعون، وإما البرد. وقال سعيد بن جبير: هو الطاعون، ولما استقرت يد بني إسرائيل على بيت المقدس استمروا فيه وبين أظهرهم نبي الله يوشع، يحكم بينهم بكتاب الله التوراة، حتى قبضه الله إليه وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة، فكان مدة حياته بعد موسى سبعًا وعشرين سنة.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أعمال

للمؤلف

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أعمال للمؤلف

١. كتاب (**المنظار الهندسي للقرآن الكريم**)، دار المسيرة، عمان، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.
٢. كتاب (**أنت والانترنت- جلّ** ما **تحتاجه من خدمات الشبكة العالمية-**)، دار الرشد, ١٤٢٢هـ,٢٠٠١م.
٣. كتاب (**القرآن منهل العلوم**), طبع الجامعة الإسلامية, بغداد، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
٤. كراس (**مواصفات الفحوص المختبرية لأعمال الهندسة المدنية**), مع مجموعة من المختصين،١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
٥. كتاب (**القوانين القرآنية للحضارات -النسخة المختصرة، ١٢٥ صفحة من القطع الصغير-**)، طبع ببغداد عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٦. سلسلة كتب (**ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية-** ١٥ جزءاً-)، مطبعة أنوار دجلة، بغداد –العراق، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

أ. التأريخ والآثار.
ب. المادة والطاقة.
ت. الفلك.
ث. الأرض.
ج. الرياح والسحب.
ح. المياه والبحار.
خ. النبات والإنبات.
د. الحيوانات والحشرات.
ذ. الطب.
ر. الوراثة والاستنساخ.
ز. الصيدلة والأمراض.
س. الجملة العصبية والطب النفسي.
ش. الأحلام والباراسايكولوجي.
ص. الاقتصاد والاجتماع.
ض. آخر الزمان.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٧. عدة بحوث في مجال الهندسة المدنية منشورة في مجلات ومؤتمرات هندسية مرموقة داخل العراق وخارجه.
٨. عدة بحوث ومقالات في مجال الإعجاز القرآني منشورة في صحف ومجلات ومؤتمرات مرموقة داخل العراق.
٩. عدة أعمال مرئية تلفازية وحاسوبية في محطات محلية وأخرى فضائية عربية.

مشاريع كتب للمؤلف

١. كتاب (تفصيل النحاس والحديد في الكتاب المجيد)، جاهز للنشر.
٢. كتاب (القوانين القرآنية للحضارات)، النسخة المفصلة – ٣٢٥ صفحة قطع كبير-، جاهز للنشر.
٣. كتاب (استنباط الحلول من أسباب النزول)، قيد التأليف.
٤. كتاب جامعي عن المواد الهندسية، قيد التأليف.
٥. تصاميم شبكات الخدمات المائية والصحية، قيد الإعداد.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com